بهاء عبد المجيد

النوم مع الغرباء



النوم مع الغرباء

النوم مع الغرباء

«روايـة»

بهاء عبد المجيد

النوم مع الغرباء

تأليـــــــف: بهاء عبد المجيد

طبعـة أولـى: دار ميريت ٢٠٠٥

طبعة ثانيـــة: خاصة ٢٠٠٨

تصميم غلاف: عمرو الكفراوي

إهـــــداء

إلى ...

أبي .. الأكثر طيبة

بهـاء



ولاية بوسطن: منتصف التسعينيات

ذهب "نادر" إلى الثلاجة، وأخذ زجاجة ماء بارد وشربها حتى قبل النهاية بقليل، الجو حار وخانق برغم ما يشاع أن ولاية بوسطن من الولايات الباردة في الصيف، قال لنفسه: ربما السبب ضيق الشقة التى يقطنها منذ أيام قليلة مع ابن عمه "باسم" الذى جاء هنا منذ بضع سنوات مع جاكي الفتاة الأمريكية التى تعرف عليها فى مقهى "زهرة البستان". بوسط البلد، فترك جامعته قبل أن ينهى دراسته.

كان "نادر"متطلعاً لزيارة "باسم" الذي افتقده كثيرا؛ لأنه كان أقرب أبناء العائلة منه، وبينهما توافق فى كل شيء خاصة حبهما للموسيقى والغناء.. استقبله "باسم" فى ميدان هارفرد العريق كما اتفقا فى الهاتف، وبالرغم من تأخر باسم فى المجيء إلا أن "نادر" استطاع أن يقضى وقته فى النظر إلى المارة عند مقهى "أوبابان"، واستمتع بالتحدث إلى الرسامين ولاعبي الشطرنج الذين يجلسون بالساعات، وذكره ذلك بصديقه حازم الذى يدمن الشطرنج، ولم يتركه إلا ليعمل مدرباً فى إحدى صالات الألعاب بشرم الشيخ.

التي خرجت من السيارة وتمسك بذراع "باسم" فتاة ذات ملامح أسيوية، لم يتعرف عليه "نادر" من اللحظة الأولى، فقد خف وزنه، ونما شاربه، وملابسه غريبة حيث يرتدى بنطلونا من الجينز المهترئ عند ركبتيه وقميصا بدون أكمام، ويقود عربة فارهة: سلم عليه، وقدمه إلى "شوكي": من اليابان وتدرس فن التجميل فى أمريكا ثم قال "باسم": "لا وقت نضيعه، اركب".. انطلقت السيارة ثم توقفت أمام مبنى كبير، قال "باسم": "سنذهب إلى الساونا سأغسل لك عرق ودهون فرمونت، سنذهب إلى الساونا، أعتقد أنك تحتاج إليها بعد دراسة عام كامل فى ولاية ريفية مثلها".

خلع "نادر" ملابسه وتجرد من كل ما يستر عورته.. كان خجلاً من جسده وكأنه آدم لحظة دخوله بحواء. في حجرة البخار كان الرجال والنساء يجلسون عرايا وامتلأت الغرفة وتكثف البخار حتى حجب الرؤية تماماً وكاد يخنقه، لولا انه خرج بسرعة وصدمه الهواء وأشار إليه "باسم" فنزل المغطس البارد حيث كان بجواره رجل وامرأة يلعبان ويلهوان سوياً، وكانت عورتهما بارزة بشكل ملحوظٍ فغض بصره.



سارت السيارة بمحاذاة نهر شارلز، الأشجار الكثيفة التي تحضنه، والمباني القديمة والقصور.

قال باسم وهو يقود السيارة وينظر إليه من حين لآخر: "هنا الحياة وليست فرمونت، بوسطن أقدم ولاية أمريكية، نزح إليها الإنجليز منذ اكتشاف أمريكا ثم أصبحت موطن الأيرلنديين، هنا كل الجنسيات"، ثم أضاف " لماذا لا تمكث في بوسطن، الدراسة فى "هارفرد" هي المستقبل، وإن كان على المصروفات تدبيرها سهل، ثم أدار جهاز كاسيت السيارة على أغنية "يا جبل البعيد خلفك حبابينا" في هذه اللحظة امتزج صوت فيروز بالطبيعة فخلق جواً رعوياً خلاباً... سرح نادر فى الجبال العالية، وتذكر فرمونت وصديقته "سارة" " وجاءته فكرة كتابة قصة.



اسمى "نادر" أتيت إلى فرمونت لأدرس الأدب الأمريكي، شعرت بالضجر لوجودي فى فرمونت، والفتاة التى كنت أريد أن تصاحبني هناك باتت غريبة الأطوار، وتفضل الوحدة على الصحبة، تقرأ كثيراً، وتحملق فى وجوه الناس كثيرا، وتتحدث مع الغرباء بشراهة ثم تتركهم فى منتصف الطريق، وبالرغم من افتتاني بها إلا إنني كنت

أشعر أنها تخاف أن تعطى حياتها لأحد. أتصورها شخصية روائية أكثر منها عادية حيث تملؤها التناقضات، إحباطي منها دفعني للسفر فتركت فرمونت لأزور "باسم" وها أنا أجلس مع غرباء عنى تماماً، وخاصة هذه اليابانية ذات العيون الضيقة والبشرة الصفراء الباهتة.

قال باسم لى بثقة: "شوكي ستمكث معنا يومين، ثم ستذهب، وستكون على راحتك".

الفتاة اليابانية كانت متضايقة كثيراً، وكأن هناك امرأة أخرى تحتل مكانها. قال وهو يضغط على كتفي: "سيبك من الحريم حتروق بالليل".

فى الشقة الصغيرة التى تقع فى منطقة "بريتون"، قدم لي مشروباً وقال: "أكيد وحشك الطعام المصرى"، فطلب وجبة جاهزة من مطعم لبنانى عبارة عن وجبة كفتة وكباب وأرز بالخلطة".

قال: "الولايات المتحدة غير مصر تماماً، هنا كل شىء، ما تحلم به تجده، حاول وستجد حتى وإن لم يكن معك نقود، البطاقة الائتمانية ستفتح لك كل شىء اطلب وسدد على راحتك".

فى المساء جاء بعض السودانيين وطهوا طعاماً عَبِقَ الشقة برائحة غريبة، وكأنهم وضعوا فيها توابل الشرق كلها، وغنوا كثيراً، ورقصوا أكثر، فقال: هؤلاء أكثر إخلاصا من أية جنسية فى العالم وغنى معهم "سرقوا الصندوق يا محمد " ثم انصرفوا.

عندما خلدنا للنوم كانت الفتاة ترقد على حافة السرير، وأنا بجوار الحائط وباسم فى الوسط فقلت له: هذه أول مرة أنام بجوار امرأة ليست امي أو أختي"، قال "باسم" وهو يحتضنها بقوة ويقبلها: "البشر كلهم إخوة ".

فى الصباح تشاجرت اليابانية معه، وعندما سألته عن سبب الشجار، قال: "إننا نتحدث بالعربية وهى لا تفهم هذه اللغة، وهذا ما يغيظها، فلوت وجهها واصفرت وضاقت عيناها أكثر وسمعت علو صوته وتهديده لها، وقال: "لقد هربت من القهر فى مصر فلا تكوني أنت سجانتي هنا. جئت هنا للحرية، لكى أكون أنا وليس ما يريد الآخرون.. هذا ابن عمى، وأهم منك كثيراً، ويجب أن تحترميه". فتمتمت قائلة: اللعنة.

بعد ساعة حزمت الفتاة حقيبتها ورحلت، وجلسنا سوياً، وقال: المرأة لن تحكمني، ستعود يوماً. اليابانيات ليس لهن سوق هنا، فالرجل الأمريكي يحب المرأة الإسبانية أو الإيطالية، يحب الروح المفتقدة فيه.

أصبحت الشقة مرتعنا، وشاهدنا التلفاز، وطهونا بعض الطعام، وشربنا القهوة، ثم أخذ يحكى عن زوجته السابقة التى جرته إلى المحاكم وأخذت كل ما ادخره فى الفترة الماضية بسبب صفعه لها عندما رفضت الالتزام بتقاليده وقال: "قطة عاهرة لا تريد إلا النوم بين أذرع الرجال، وتحت أفخاذهم". ثم قال: مهمتها انتهت منذ وصولي هنا، أنا الآن أعمل سائقاً لسيارة أجرة وأجمع مالاً وفيرا، قلت: والعلم والجامعة والغناء فأشار بإصبعيه -السبابة والوسطى - وقال بصوت تملؤه الجدية: "المرأة تحب الدولار والهزار". ثم أمسك بجيتاره وبدأ يعزف مقدمة أغنية "حاول تفتكرني" لعبد الحليم حافظ.

فجأة رن الهاتف، وأخذ يتحدث بالإنجليزية مع فتاة ظننت أنها "شوكى" حيث يقول لها: "اهدئي وعودي، وأنا فى انتظارك، ثم وضع الهاتف وضحك وقال: حظك فى رجليك يا "عم نادر" واحدة حلوة قوى هتزورنا، بس هى صاحبة صديقى، روسية بس إيه ! حكاية، عارضة

أزياء، ستأتى بعد نصف ساعة. قلت: أكره الخيانة.ثم ضحكت، وقلت: الزوس جدعان برضه ساعدونا فى بناء السد العالى.

كانت "أولجا" فارعة الطول، برونزية اللون، ورمادية العيون ذهبية الشعر الذي ينسدل بحرية على جذع رقبتها الغزالية.

جلست بهدوء ثم انهمرت دموعها، وعلا نشيجها فذهب إليها "باسم" وأخذها بين ذراعيه، ونامت براحة على كتفيه وبعد برهة اعتدلت فى جلستها، ناولتها منديل "كلينكس" فشكرتني.. قالت: وغد يعاملني بقسوة ويتهمنى فى شرفى، يبتذنى ويأخذ نقودى، فاشل ووضيع. ثم أزاحت تنورتها لتكشف عن ساقيها، وقالت: يشك أنني أضاجع رجلاً آخر بسبب هذه التجمعات الدموية والكدمات الزرقاء، وأحلف بالمسيح أنها أصابع الملائكة التى تهدهدنى فى أحلامي المزعجة طوال الليالي التي عشتها معه".

كانت أغنية "بوب مارلى: "No Women , No Cry" "لا نساء لا دموع"، تملأ فراغ الغرفة وعندما استمعت إلى المقطع الأخير ارتفع صوت بكائها أكثر، فحاولت تهدئتها:

- ولماذا لا تتركينه؟ سألتها وأنا أشفق عليها من هذه الكدمات وأصابع الملائكة.

- "أحبه ولا أستطيع أن أبعد عنه، ثم سكتت وقالت: ولمن أذهب؟ لا أعرف أحداً في هذه الولاية، فقد عرفت الحب على لمسات يديه، وتذوقت الشهوة على ملامس شفتيه، وغرفت من منابع النشوة بين ذراعيه، ورائحة جسده التي تغمرني"، ثم صمتت برهة لتمسح دموعها ثم أضافت وهى تنظر لي: " ولكن الآن لا فائدة منه؛ لقد هجرني إلى ممثلة أمريكية مغمورة بدا مفتوناً بها، يسهر معها، ولا يقترب منى مطلقاً، وأوقاتنا الآن شجار مستمر".

فجأة دق جرس التليفون.

سمعته يقول: "ألا تؤجل مجيئك هذا إلى الغد يا جورج" رأيت نظرة من التوتر على وجهه ثم وضع سماعة الهاتف وقال:"يجب أن تختفي أولجا الآن، جورج خطيبها سيأتي حالاً".

همست برهبة "لا يجب أن يراني هنا، سنتشاجر سوياً؛ سيضربني" انتقل التوتر والخوف إليّ وشعرت أنها تنتمي لى وتخصني، وأنها تطلب نجدتي، خيلت لي سذاجتي أن جورج هذا سيتشاجر مع باسم وربما

تحدث معركة بينهما، وسيهدم المعبد على أصحابه، أخذت حقيبتها في يد وامسكت بالأخرى إحدى يديها.. كانت باردة ونحيلة وشعرت بنبضات عروقها ترسل إشارات إلى جسدي كله فاسرعت خطواتي، على السلم الخشبي المؤدى إلى سطح المنزل، كان الجو بارداً.. النجوم خجلة هذا المساء ولكنها ترسل وميضاً من حين إلى آخر.

اجلستها بجوار الحائط.. قلت لها:"لا تخافي"، قالت: "الهروب العظيم".

شعرت بأهميتي فى هذه اللحظة، هبطت الدرج متسللاً خائفاً دقات قلبي تتصارع، ونبضي يزداد، شعرت مرة ثانية وأنا ألمس جدران الدرج بملمس يديها وتوترت الإشارات التى أرسلتها يداها لى منذ دقائق عديدة.

كان جورج شخصاً ممسوخاً، خيالا لبقايا رجل، فارع الطول، خفيف الشعر، عضلات ضامرة يكشف عنها بقميص أسود ذي أكمام قصيرة لا تتناسب مع حجمه.

كانت تفاحة آدم تظهر فى رقبته بشكل غير طبيعي فتثير فى نفسي رغبة فى اقتطافها، وإلقائها تحت قدمي.. رأيته يتحدث عن نفسه

بطريقة يملؤها الغرور والحنق كبطل عجوز مهزوم يتوعد بمباراة جديدة يهزم فيها بطلاً عالمياً شاباً.

تكلم جورج عن النساء اللاتي يطاردنه فى كل مكان، عن الحب للفتاة الأمريكية التى أعطته كل ما يحتاج من مال وجسد، وعن حبيبته "أولجا" واكتشافه خيانتها، وهو الذي أعطاها الفرصة لكي تجئ إلى أمريكا لتعمل فى مجال عروض الأزياء، وعن صنعه لها ولغيرها عن طريق صوره الفوتوغرافية التي تجذب أهم دور الأزياء لهن. قلت لباسم: "لماذا نتهم دائما المرأة بالعهر لأنها تعطى جسدها للرجل الذى يدفع لها، ولا نتحدث مطلقاً عن الرجل الذى يعطى نفسه للمرأة وينتظر منها المقابل؟". قال باسم وهو يعد الشاي: قصدك ال "جوجولو"، ثم قال بصوت مخنوق: لا داعى أن تكون فظاً بهذه الطريقة، ثم جلس بجوار جورج وأشعل سيجارة بعصبية.

ولكن الشيء الذي أثار في نفسى القلق مرة ثانية، أن جورج لم يسأل عن محبوبته الغائبة ولو لمرة واحدة ولم يهتم أين هى؟ ولم يتجول –رغم ارتباكنا عند قدومه – في الشقة التى تسمى أستوديو ولم يزعج نفسه

حتى بالسؤال: هل اتصلت خطيبته أم لا؟ ولم يتحدث عن اختفاء خطيبته.

بعد أن غادر المنزل فى الخامسة صباحاً. صعدت لها كنت أحمل فى يدى مصباحاً، وطلبت منها النزول فلقد زال الخطر، وذهب ذلك الغادر. كان الكاسيت يعيد الأغنية نفسها مرات عديدة، أعددت لها "أومليت" وخبزاً، وبعض التفاح، أكلت كأنها كانت هاربة من مجاعة، نزلت الدموع مرة ثانية، وقالت لى: "أنت طيب جداً".

"ضحكت: "ليس كما تعتقدين"

عندما ذهبت لتنام سألتُ باسم: ألن تنام بجوارها؟ فأجاب "ليس الآن، هى ضيفة عندى لمدة محددة ولكن ربما يحدث.. لا أعلم".

- وهل أعطيتها العنوان قبل أن تجيء إليك ؟.

- لا.

- ولم تأت أبداً لزيارتك مع صديقها جورج هذا ؟.

- مطلقاً.

- إذن كيف عرفت عنوان المنزل؟

نظرنا إلى بعضنا البعض وضحكنا حتى الدموع وذهبنا لننام بجوارها كما حدث مع السابقة.



الأيام التى قضاها نادر مع باسم لم تكن كافية لكى يتعرف على أولجا هذه، وهل هناك مؤامرة فى وجودها مع باسم فى المكان نفسه والتى يعلمها تماماً خطيبها جورج المفلس، والعاطل عن العمل حتى يتكفل بها باسم أثناء وجودها فى شقته لفترة من الزمن، الروس حولهم أسئلة كثيرة فى أمريكا حتى بعد انتهاء الحرب الباردة، يعيشون وكأنهم عملاء سريون يجب أن يتخفوا ويتصرفوا كمتطفلين يجب نبذهم لكى يتعلموا الاعتماد على النفس. منذ أن وطئت قدم أولجا المنزل ورائحة الدخان الأزرق تعبق البيت حتى إنني أدمنت رائحته، أما أعشاب البانجو فقد انتشرت فى أركان البيت كأنها نباتات ظل وكان باسم ماهراً في لف السجائر، وكأنه أحد أبناء الباطنية المخضرمين فى عالم المخدرات، عندما سألته عن فائدة ذلك قال: الحياة هى الجنس والمخدرات والموسيقى كما كان يؤمن العالم فى الستينيات. أثناء النهار كانت أولجا تقضى وقتها فى البحث عن وكيل دعاية لكى تعمل فى السينما أو

الأزياء ولكن العرض الوحيد الذى وجدته هو فتاة أستربتيز فى أحد النوادى الليلية. ولم يعترض باسم على أى عمل تقوم به وعندما قال نادر: حتى لو وظيفتها تتطلب التعرى أمام الناس! قال باسم: هى حرة وناضجة، هنا لا يوجد أوصياء على أحد، عالم واضح وليس مزدوجاً كما فى مصر.

انتهت إجازتي واصطحبني باسم فى السيارة ليشترى لى بعض الهدايا ولكن بطاقته الائتمانية لم تكن تعمل، أو بمعنى آخر لم يكن بها رصيد، تجولنا ثانية فى أحد المحلات وأخذ من أحد الرفوف تى - شيرت وارتداه ثم جذب قطعة البلاستيك الممغنطة وعندما خرجنا خلعه وأعطاني إياه وقبلنى ثم قال: " لازم تروح مصر بحاجة جديدة ثم أضاف لا أريدك أن ترحل. أبقى هنا، راجع تانى للشقاء والتراب والاستهتار بالناس وكأنهم مخلوقات زائدة، وقتل الكرامة، أعيش هنا زبال ولا أعود لبلد لا يحترم أهله ". قلت يجب أن نلوم البشر وليس البلد. نريد أن نصلح أنفسنا وعلى العموم لو كل الناس الكويسين تركوا مصر مين يبقى فيها؟! "الوطن قدر". قال:" سيبك من المقولات المستهلكة خليك عملى، كله باع،خليك معايا وسنصنع الحلم الأمريكى سوياً".

كانت الحافلة على أهبة الرحيل، فودعته متظاهراً بعدم الاكتراث به وهربت من لحظة الفراق الصعبة. صعدت. من وراء الزجاج كانت الأمطار تهطل وتسقط على وجهه فكأنها دموعه، عندما انطلقت الحافلة لمحته يعبر الطريق وكانت أولجا تنتظره على الناحية الأخرى من الطريق.



القاهرة: أواخر التسعينيات

بأن يُرحّل باسم بعد خروجه من سجن هيلز بروا كونتي Hills Burrow county بولاية نيوهمبشيرNewhampishire، ويسلم للسلطات المصرية كان صدمة كبيرة بالنسبة لى، فقد كنت مدركاً دائما أن "باسم" من الحكمة بألا يتورط فى اى عمل يؤدى به إلى السجن، أو التصادم مع السلطة بشكل أو بآخر، ولكن هذا حدث، فقد فشل فى سداد الغرامة التى فرضتها عليه المحكمة ليدفعها لزوجته "جاكى"، وتعددت شكاوى نسائه من ضربهن وطردهن بدون رجعة وفوق ذلك حبه الزائد للمكيفات من الأعشاب وخاصة البانجو.

فى قسم البوليس حيث ذهبت أنا وأخي وأبوه لتسلمه، كان مكسوراً وشاحباً وكأنه مريض منذ عام، وبالرغم من أن سلطة أبيه أبعدت عنه قضية المخدرات، ولكن الإقامة غير الشرعية في الولايات المتحدة كانت هى التهمة الأساسية الموجهة إليه؛ وبالتالي سقطت عنه بترحيله إلى مصر؛ ولذلك أطلق سراحه، كانت نظراته لى تنم عن ندم واعتذار، ولكن فى الوقت نفسه عن لوم وعتاب ربما يقول إنني لو مكثت معه فى بوسطن كنا قد حققنا الحلم سوياً ولم يتورط فى شيء، ولكن أثناء

وجودى معه فى بوسطن كنت شديد الاطمئنان عليه فهو ليس قاصراً ولامتهوراً، بل على النقيض تماماً فقد كان مصراً على أن يظهر لى الجانب المشّرد لأمريكا كبلد متحضر ومتسع لجميع الثقافات، فدعانى لزيارة متحف "ثمثسونين Smithsonian العلوم والفضاء"، حيث شاهدت هيكل أول ديناصور في العالم وصورة لأول أشعة أكس لرئة متفحمة لرجل بسبب التدخين، وذهبنا سوياً لمتحف الفنون الجميلة، وشاهدنا لوحات لبيكاسو وفان جوخ وفريدا كاهلو، توغلنا فى الغابات الخضراء الكثيفة، ولمحنا السناجب، والغزلان تنظر إلينا بترقب ومحبة، ولم يحرمنى من التجول فى أرجاء جامعة هارفرد وزيارة معهد ماسشيوتس التكنولوجى. إذن ماذا حدث؟ ولماذا تدهور هكذا؟ وهل أصبح الحلم الأمريكي الكابوس الجاثم على قلوبنا جميعاً ؟

والدته اتصلت بي وبأخي قالت: أنقذوا "باسم" فهو فى سجن سوفك كونتي County Suffock ببوسطن منذ سنة تقريباً، وسيرحّل إلى سجن آخر كنت قد عدت من فرمونت قبل ذلك بقليل، وكلما اشتقت إليه اتصل به عن طريق الخدمة التليفونية At&T، وكان هو الذى يدفع ثمن المكالمة وكان يسألني عن الأهل والأصدقاء، وعن دراستي، ولكن انقطعت أخباره فجأة، ولم يعد يرد على الهاتف، وسكن فى الشقة

شخص آخر لم يذكر أية تفاصيل عن غيابه، وبعد تردد أخبرتنا والدة باسم أنه يجب أن يدفع عشرة آلاف دولار، لكى يخرج من السجن، وأنها تكتمت الخبر فترة طويلة حتى تستطيع تدبير هذا المبلغ، وأيضاً حتى لا تفضح نفسها وزوجها وسط العائلة بسبب سجن ابنهما فى أمريكا بسبب أمور مشينة.

كانت دائماً خجولة، ووحيدة، ولا تحب الاختلاط ولا النميمة، تقرأ وتتفقه فى الدين كثيراً، وتسّجل دائماً أحاديث الشيخ الشعراوي التى تبث تلفزيونياً "يوم الجمعة" وأيضاً حفلات الموسيقى العربية، هى التى شرحت لى معانى قصيدة "الهمزة النبوية" لأحمد شوقى والتى شدت بها أم كلثوم " وسورة مريم" وتخبرني أن من يتقِّ الله يرزقه بغير حساب كما كان يحدث للسيدة مريم وهى فى المحراب، فحببتني فى التقوى وفى الجنة. ربما ساءلت نفسها كيف انفلت" باسم" من يديها بعد أن كان ملء قبضتها فى طفولته، وهى التى كانت تخشى عليه من السقوط وهو الذى لم تقّو أجنحته بريش صلب حيث كانت تصطحبه فى يديها أثناء ذهابها ورجوعها من المدرسة حيث كان يدرس بالمدرسة نفسها التى كانت تدرس بها الموسيقى، ولم تكن تتركه ينطلق مع التلاميذ أو حتى مع أطفال العائلة، حتى لا يقلدهم، نتذكر كم من

المرات وقف بجانبها وسط فرحة العائلة فى المناسبات العديدة ليغنى لنا، وهى تعزف له على الكمان أغنية "قارئة الفنجان"، وكيف كان بارعاً فى أداء معظم الأغنيات والموشحات القديمة، حتى إنني كنت أغار منه، وأحيانا أتساءل لماذا لم تكن أمى مثلها تعزف مقطوعات لموتسارت وشوبان وتملأ فراغ الكون بألحان سماوية بدلاً من أمى هذه التي تأمرني دائماً بالمذاكرة وأداء الواجبات وعندما تفرح تغنى لأبي في الفراش "الأوله فى الغرام"، ثم كيف أنه ذهب إلى البحرين عندما كان مع والده في رحلة عمل فغنى في حفلة المدرسة التي تعمل بها والدته فكرمه السلطان قابوس وكردستان رئيس فرنسا لصوته الجميل، ولأدائه المتميز. من قتل فيه هذا الفنان ؟ هل هى أمه التى ادعت أن الهواية شيء والاحتراف شيء آخر، أم هى الفترة التى نعيشها هى التى قتلت كل ما هو حقيقي وإبداعي بسبب الزحام وانعدام الذوق العام، أم هو نفسه السبب لإهماله لموهبته، ولضعف إرادته، ولعدم قدرته على إثباتها ؟



ثار خالد عندما علم بالأمر وقال: إنه يشعر بالمهانة لعدم إخباره بما حدث لباسم، وأن هذا قلل من قيمته كرجل ومسئول ووصى على العائلة

برغم صغر سنه، فهو رجل أعمال استطاع أن يصبح من أهم مصدري الروائح العطرية فى مصر. وأنه لا قيمة لهذه الأموال إن لم تجعل له مكانة بين أهله، وأن الرجولة أن تتحمل المسئولية في وقت الأزمات.

جمع خالد الأموال اللازمة، وأكملت له المبلغ الذي كنت سأشترى به سيارة "فيات" صغيرة تنقذني من معاناة المواصلات العامة، وتطوع صديق لنا يعمل طبيب عظام مثل والده بأن يذهب إلى بوسطن ليتفاوض مع السلطات الأمريكية، ليدفع الكفالة، ويفرج عن باسم. وبعد مفاوضات عديدة عاد باسم وحيداً ومنهكاً.

فى السيارة رفض باسم أن يجلس فى المقعد الأمامي بجوار والده، وجلس بجواري صامتاً ورافضا للكلام، قال الوالد إنه سعيد بعودته سالماً، والنقود التي دفعت لا تعنى شيئا، وأن الشكر يعود لخالد ولنادر، وأن مصر أم الدنيا، وأن وجوده بيننا هو الأهم، قال هذا وفى صوته نبرة حزن وأسى وندم، أليس هو الذي شجع باسم أن يهاجر مع جاكى ودفع له ثمن تذكرة السفر؟ وتساهل معه فى عدم تكملة دراسته فى جامعة القاهرة، وقال: فى الولايات أرقى الجامعات، وتوسط له ليأخذ الإعفاء النهائي من الخدمة العسكرية، لكى يسهل إجراءات السفر؟ ألم يتواطأ بالصمت على

تحكمات والدته بألا يدرس الموسيقى ولا يجلب الأصدقاء للمنزل، وأيضا أبعده تماماً عن أى تيار إسلامي أو ثقافي يربطه بجماعة تحقق له الانتماء للوطن، غير أنه جعل النساء محور حياته كلها بعد أن كانت حياته العلم والمعرفة والموسيقى.

من نافذة السيارة كان ميدان العتبة مضاء بأنوار باهتة، ومبنى المطافئ قد أعيد طلاؤه بطريقة لا تمت لفن الترميم بصلة، وكان قسم البوليس غاية في السوء، والآلاف من الشباب يسرحون ببضائعهم في ميدان العتبة، أمامهم قطع من الخشب عليها أصناف متعددة من البضائع، من ملابس داخلية لكلا الجنسين، ألعاب أطفال، أحذية، ورود صناعية، ساعات، وحافظات جلدية، ورأى من قريب رجال البلدية يطاردون الشباب الذين يبيعون بضاعتهم، ويجرون بسرعة وهلع كأن وراءهم الطوفان، فقال باسم لنفسه: " لو حلم كل واحد من هؤلاء بالهجرة لأمريكا فمن حقهم، من يرضى الذل والهوان وقلة الحيلة؟"، ثم قال لنفسه: "لازلت تتعاطف مع من سجنوك وأهانوك وبدلا من أن تعود لمصر بدفتر شيكات في يديك رجعت بأغلال وسلاسل ".

نظر للمسرح القومي الذي بدا كخيمة كبيرة تغطي جدرانها الأترية والعناكب فتذكر نيويورك بشوارعها المضاءة ومسارحها الصاخبة، وحفلات الأستربيتيز، وعروض الرقص والجاز والبلوز. وكأنه في كابوس طويل مرت أمامه شوارع الولاية التي كان يمشى فيها، والبنايات الشاهقة، والشوارع النظيفة، ووسائل المواصلات المختلفة بأنواعها المتعددة، وكأن البشر من حقهم أن يعيشوا كما يجب أن يكون، ثم سأل نفسه لماذا لا نبني منازلنا مثلهم؟ كانت السماء تمطر؛ فتراكمت المياه بسبب الحفر والمطبات على جانبي الطريق ووسط الشوارع، فتذكر المطر الذي كان ينهمر كسيل ثم بعد توقفه لا ترى قطرة ماء متراكمة، فهناك مصارف تبتلع كل هذه المياه، وسأل نفسه ألا يستفيد المصريون من خبرة الآخرين؟ وهل نحن نعذب أنفسنا بعدم صراعنا من أجل تغيير الوضع الراهن، أم سيبقى الحال كما هو عليه لأننا تحجرنا مثل أعمدة الكرنك، وأحجار الأهرامات ؟ ثم قال لنفسه بماذا أفادتك الحضارة غير الإهانة والذل، وتذكر حاله في السجن والعذاب الذي تعرض له على أيدي الحراس والمرافقين له. ثم قال لنفسه: الحضارة لها ضريبتها والحرية لها ثمن يجب أن تدفعه.

وهو ينزل من السيارة أعطاني دفتراً يحتوى على العديد من الأوراق، وقال احتفظ بها، أعرف أنك تحب الكتابة فربما تفيدك في كتابة قصة يوما ما.

ستكون هناك أوراق بها مذكرات ويوميات كتبها باسم في رحلته البعيدة حاولت أن تقرأها وتعيد قراءتها متخيلاً كيف يمكن أن تخلق منها قصة تبقى في ذاكرة الكتابة، وتتركها وتنام وستستيقظ فتجد بعضاً من هذه الأوراق تتناثر فوق الفراش، أما الباقي فتراه على الأرض غارقاً في المياه التي سكبتها الخادمة لتنظف بها الحجرة كما أمرت زوجتك، فتقوم من النوم مذعوراً، تلملم الأوراق الباقية، وتتشاجر معها محاولاً أن تُفهمها أنها قامت بجريمة فتقول لك إن عدم النظافة هي الجريمة الكبرى. تحاول أن تقرأ ما كتبه باسم ولكن الكلمات طهرها الماء ومحاها، طرأت فكرة أن تجفف الصفحات الباقية بالمكواة، ولكن ما ظهر من الكتابة قليل، فحاولت أن تكمل ما نقص من الحقيقة ببعض من الخيال، وهذا ما قصه باسم في هذه الصفحات المهترئة.



نيوهمبشير:١٩٩٨

باسم اسم يثير السخرية، فمنذ أن دخلت هذا السجن ولم أضحك، ولم أبتسم يوماً واحدا، شهر كامل فى سجن الولاية وحيد بدون رفيق، أو صوت أسمعه فى سجنى الانفرادي. إلا من بعض الرموز التي لا تعنى شيئا فى قاموسي اللغوى. تم القبض عليّ دون سابق إنذار بينما كنت أدخل باب البناية التي أسكن بها في منطقة بريتون، ومكثت وقتا طويلا لا أعرف السبب. كانت هناك أكثر من تهمة موجهة لى: الأولى التحرش الجسدي بزوجتي لتعترف أن ما فى أحشائها هو ابني، كنت أريد طفلا ليس فقط لأحصل على الإقامة الدائمة، ولكن أيضاً لأشعر بوجودي، وأن هناك من سيحمل اسمي، وأحيانا كثيرة كنت أكره فكرة الذرية، فهي حمل ثقيل، وما أجمل أن يعيش الإنسان بدون إحساس بالمسئولية تجاه المستقبل، تجاه الأطفال فتموت أو تعيش لا توجد مشكلة.

ثم الحمل الأكبر هو الغرامة التي فرضتها المحكمة بسبب الطلاق، والتى لم أستطع تسديدها فوجب السجن، ثم أخيراً التستر على جاسوسة تعمل لدى المخابرات الروسية والتي اكتشفت أنها أولجا، وتأكدت من ذلك بعد اكتشافي لسرقة وثائق والدي السرية التي

أحضرتها معي من القاهرة، والتي فكرت أن أبيعها في الولايات المتحدة، أو ربما تفيدني في تأليف كتاب سياسي مثل كتب هيكل التي قرأتها في القاهرة، حيث كان صديقاً شخصياً لوالدي فسمعت منه الكثير عن هذه الاتفاقية برغم صغر سني.

كان هيكل يعارض السادات كثيراً ويحرض الرأي العام ضده، وكان السادات بدوره يكره "هيكل" ويود التخلص منه بأية طريقة، كان لدى أكثر من ملف سرى حول سيناريو "كامب ديفيد"، الذى كان يعده والدي لتقديمه للسادات، وكان يتردد لعدم استجابة السادات لموقف والدي، فكثير من الأمور كان يخططها بنفسه، وكان أسامة الباز وأحمد ماهر أكثر اقتراباً من السادات من والدي ومشورتهما كانت تلاقى استحسانا، كان والدي يشعر بالإحباط من هيمنة كارتر على الوضع في المباحثات بين مصر وإسرائيل كشريك في عملية السلام، وخاصة المتعلقة بانسحاب إسرائيل لحدود ١٩٤٨، ١٩٦٧، وتنفيذ القرار رقم ٢٤٢ الذي يعطى الحق للفلسطينيين في تقرير المصير والحكم الذاتي وليس فقط الإدارة المحلية

أخذت من والدي الوثائق الخاصة بالقدس، ومكانتها في المعاهدة إذ تم للفلسطينيين الموافقة على المفاوضات، والتوقيع على المعاهدة، ومن يسيطر عليها أمنياً وهل تصبح القدس عاصمة لإسرائيل أم تصبح عربية أو منطقة محايدة؟ كان والدي مسئولا مسئولية تامة عنها بتكليف من السادات نفسه، وكان لديه أيضاً تسجيلات صوتية مفرغة على شكل وثائق ورقية للأحاديث التي كانت تدور بين مناحم بيجن وكارتر والسادات، كلها أخذتها معي بعدما نسخت منها صوراً ضوئية.

وأيضا كانت هناك خطابات متبادلة بينهما تتحدث باستفاضة عن هذا الموضوع، حتى قرار السادات بالقبض على الشيوعيين والإخوان المسلمين المعارضين لعقد الاتفاقية، وقائمة بأسمائهم كانت موجودة لدينا فى مكتب والدي والتي سرقتها من مكتبه، أو ربما كان والدي متساهلاً فى ذلك بعد تهميش دوره منذ اغتيل السادات وتولى مبارك الحكم.

كنت قد أدمنت أولجا وتفننت فى إسعادها حتى وبعد أن تصالحت مع جورج كانت تجيء إليّ وتمكث معي طوال الليل، وأصبحت تجرى داخلي كدمائي وأصبحت نبضي، وتركتها تعبث بأشيائي وجسدي

وعرفت خطوط شراييني وعدد مسام جلدي، وعدد طبائع الحسن الموجودة على أجزاء مختلفة مني حتى في الأماكن الحساسة، وأنا كذلك عرفت مواطن لذتها، ومكامن استثارتها وكنت دائماً أزيح عنها التعب بعدما تأتى من عروض الأزياء بأن أدلك جسدها بزيت البرافين والزيتون الليبي. أما هى فكانت تضيء الشموع التي كانت تعشقها كثيرا وتضعها في أماكن متفرقة من الشقة فتخلق جواً من الهدوء والسكينة والبدائية. عبثت هي أيضاً بأوراقي ودفاتري وأسطواناتي الموسيقية، وأصبحنا عاشقين تضىء ليلهما الشموع، وتحيطهما الموسيقى، والتي تنبع من لذة الالتقاء والارتواء، فكأننا فى لحظة نورانية صوفية رقيقة، حتى وعندما عادت لجورج بدون سبب مدعية أن "جورج" ليس سهلاً، وأنه من الممكن أن يذبحها ليلاً بسكين فى ركن مظلم أثناء خروجها من المسرح، لن ينقذها ولن يهتم بها أحد، وخاصة أنها ليس لديها أوراق شرعية للمكوث فى أمريكا؛ فمن الأفضل مجاراته فأقنعتني أنه عاجز جنسياً، وأن ما يحتاجه فقط هو بعض النقود وبعض الاعتراف بالجميل.

استيقظت من النوم فوجدت خطاباً تعترف فيه بحبها لى، ولكن حبها لجورج أقوى وأكبر لأنه ابن بلدها، وأنها لا تستطيع أن تحتمى فى

هذه البلدة الموحشة بالغرباء من أمثالي الذين لا حول لهم ولا قوة غير قبلة ساخنة ولذة لم يكن أنا فقط الوحيد القادر على تفجيرها فيها، فالحياة مملوءة بالرجال. وقبل أن تنتهى رسالتها بتوقيع "الغير مخلصة" قالت: اشكر لي "نادر" فقد جعلني أشعر بآدميتي بدون ثمن حتى وإن لم نأكل سوياً التفاحة كما فعلت معك.

أما بخصوص الوثائق السرية فقد قالت إنها لم يكن هناك مفر من سرقتها؛ حيث كانت هذه هي مهمتها التي كُلفت بها من قبل المخابرات الروسية فهي مؤمنة جداً بقضايا وطنها، فقد كان الاتحاد السوفيتي يعانى كثيراً من الانقسامات بسبب تدخل أمريكا في قضاياه، ولكنها لديها يقين أن الروس يجب أن يحكموا العالم أيضاً. ولن يتركوا العالم تتحكم فيه مجموعة من البشر ليس لهم تراث ولا أدب، قالت: نحن الذين علمنا العالم كيف يرقص الباليه، وروايات تولستوى وتشيكوف وديستوفيسكي هي مصدر الحكمة الحديثة، ثم أضافت: إن الوثائق مهمة جداً؛ لأنها ستساعد روسيا على التعرف على الخطط السرية لإسرائيل وأمريكا فى الشرق الأوسط، وبالتالي سيتسنى لروسيا أن تشارك فى فهم الخريطة المستقبلية ليس فقط للشرق الأوسط بل للعالم، ثم قالت إنه على العموم فهذا فى مصلحة مصر والعرب، ثم قالت إنها تعده إن لم

يكن لهذه الوثائق قيمة حقيقية، سترسلها مرة ثانية، هى ليست بالدنيئة كما ينبغي، ولكن لها مهام يجب أن تقوم بها، فاللذة تكون أجمل عندما تختلط بالربح والمصلحة.



الشتاء:

السجن ليس بالشيء السيئ كما كنت أعتقد، وخاصة بعدما نزل معى سجين آخر، كان من "الأمريكان الأفارقة"، مليح الوجه، وداكن البشرة، ويشبه تماماً الممثل "سيدنى بويتيه"، سجن بسبب تطاوله على الدين المسيحى، وكان هذا غريباً من بلد يسمح بحرية العقيدة والأديان، وأنه صدر ضده حكم من بابا الفاتيكان بالسجن أو بالحرق كما كان يحدث للسحرة والمشعوذين فى عهد غير بعيد، حيث إنهم وكلاء الشياطين على الأرض، هذا السجين يدعى "مادوا" قال إن المسيح أسود البشرة وزنجى، وأنه من أصول أفريقية، وأن عائلته هاجرت إلى فلسطين هرباً من الاضطهاد، وأن المسيح ليس من الجنس الأبيض على الإطلاق،وأخذ يذهب لكل المتاحف ويلقى بالقار الأسود على اللوحات الخاصة بالمسيح والعذراء "مريم" ويشوهها وكان كل مرة يستطيع الهرب برغم الكاميرات العديدة التى تراقب هذه القاعات. ثم قُبض عليه أكثر من مرة وهو يعظ الناس فى ميدان هارفرد يحثهم أن يؤمنوا "بالمسيح الأسود" الذى جاء ليحرر عبيد أفريقيا وأمريكا من سطوة البيض وظلمهم وجورهم، وأن المسيح القادم سيحرر السود ويقتل "المسيح الدجال" ودعا الناس لتمزيق كل صور المسيح الأبيض وعدم الإحساس

بالشفقة لأمه أو عيونها الحزينة في مشهد الصلب؛ لأن هذا ليس هو السيد المسيح، فأمر "مادوا" أصحابه ورسله من السود أن ينشروا هذه الدعوة في كل أرجاء بوسطن عن طريق جمع التبرعات؛ وذلك للإنفاق على هذه الدعوة، فتم القبض عليه وهو يمسك بين أصابعه ورقة مزيفة من فئة عشرة دولارات أعطاها له أحد الرجال البيض، فأضيفت إليه تهمة الإتجار فى العملة المزيفة التي عليها اسم الله، وكذلك تهمة الافتراء على المسيح والدين المسيحي.

كان لا ينام إلا عاريا تماماً، ويستمنى كل ليلة وعلمنى ذلك أيضاً وجعلني لا أشعر بالذنب.

كان هناك على جسده الذي يحمل قوة أفريقية وصلابتها وشم بطول جسده لصليب يبدأ من بداية الترقوة، ويفترق بين ذراعيه، وأيضاً عند بداية عورته نازلاً على ساقيه.



صرخات في أركان السجن آتية من....مياه قذرة تسكب في كل جوانب الزنزانة.

أكياس بلاستيك.... أجساد عارية تمتطي بعضها البعض.. أسلاك كهرباء وهزات وارتعاشات أجساد.. روائح بشرية ربما تخرج من مناطق متفرقة من أجساد السجناء.

شتائم ؛ ابن عاهرة، عربي بدوي، أسود عبد.

.... محاولة انتحاري بأحد الأكياس البلاستيك بوضعها فوق رأسي ووجهي خلاصاً من الحياة....



لعبة الشطرنج، التي حاولت أن أعلمها لنادر وفشل لحبه الشديد للقراءة، ولكرهه التام للسياسة والتخطيط، والملكية، والقلاع، والتي تعلمتها من أصدقائي في المدرسة وحصلت فيها على مراكز متقدمة حتى فزت ببطولة الجمهورية، وهزمت أمهر لاعبي الشطرنج من الجالية الأمريكية في نادي المعادي، أصبحت تسليتي الوحيدة في سجن الولاية وذهل السجناء والمسئولون من مهارتي، وتراهنوا بمبالغ كبيرة على فوزي في هذه اللعبة حتى أن مباراتي قد بثت على الهواء بمناسبة اليوم العالمي لحقوق الإنسان لكي تثبت الولاية أنها متسامحة حتى مع السجناء والغرباء. إلى أن قال لي مادوا لماذا تسمح لهم بأن يستغلوك؟ هم لا

يتفاخرون بك بل بأنفسهم وكبريائهم ليقال إن البيض أعظم جنس في الكون، اترك هذه اللعبة وحاول أن تبحث عن نفسك في هواية أخرى.



ضعفت كثيراً هذه الأيام، الطعام ليس كافياً، والجو شديد البرودة، ولا تتوقف الثلوج عن السقوط والتي أراها من نافذتى ذات القضبان الحديدية. لا توجد طيور فى السماء. أحياناً أتخيل ملائكة مجنحة تأتي إليّ تنكمش أجنحتها لتنفذ من بين القضبان فتضحك لى، وتلمس شعرى بأجنحتها أو بأصابعها كما دعت أولجا عندما حكت لنادر قصتها.

أتخيلها روح أمى تدعو لى فى صلواتها أن أعود إليها سالماً. لم أجرؤ أن أكتب إليها وأخبرها بما حدث خشية من أن تحزن أو تصاب بمكروه، هذه المرأة ذات الشعر الناعم المسترسل على ظهرها وجبهتها كأنها مهرة عربية أصيلة كمهر الشرقية المعروفة بجمالها ورونقها وأصالتها، وهذا الجسد المتناسق، والسيقان المدملكتان بدقة التي كنت أغار عليهما حتى عندما تكشفهما أمام أبى، ماذا أقول لها، إنني فشلت في الغربة وإنني محبوس، وأقهرها! وهي التي كانت زهرة أسرتها المكونة جميعهن من

إناث، وكلهن استطعن أن يعلمن أولادهن أفضل تعليم فمنهم الأطباء والمهندسون، هي التي حافظت عليّ من كل ما هو ضار وغير نافع، حتى إنها كانت تغلق الأبواب أثناء خروجها نظراً لهوسي بالحياة خارج المنزل منذ طفولتي، وعندما تعلمت الحبو كانت تقيدني من قدمي حتى لا أذهب إلى الحمام فأنحرف في البانيو أو أضر نفسي. الآن ستتشدق الأسرة بفشلها. في النهاية كتبت لها عندما مرضت فالسعال لم يشفِ. وتدهور صدري كثيراً وبت في مرحلة الخطر، والزنزانة غير صالحة لحياة العاديين فما بالك بالضعفاء أمثالي!.



سألني "مادوا" يوماً عن ديانتي فقلت له إنني مسلم ولكني لا أمارس الشعائر، ولكن مع ذلك فإنني مؤمن بأن لهذا الكون خالقاً، وأن الحياة لم تخلق بالصدفة كما يعتقد الماديون والملحدون، وأنه عندما هاجرت إلى الولايات المتحدة أول ما وضعت فى حقيبة سفرى سجادة الصلاة والمصحف الشريف، لم تكن هى فكرتى فقط ولكن فكرة والدتى أيضا حيث قالت لى إن القرآن سيحفظنى، ثم قرأت وهي تمسح بيديها فوق رأسى" إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" أي (مكة) وبالمعنى

واسع التأويل فسأعود حتماً للقاهرة؛ لأن كلام الله صادق، وأن الصلاة ستبعد عنى الفحشاء والمنكر، ويرغم المنكر الذى فعلته فأنا مؤمن، وأحب كل الأنبياء، وأؤمن برسالتهم، وأنه لا يهمني إن كان المسيح أبيض أم أسود اللون فأنا أعظمه وأقدره فهو كان باراً بوالدته، ولم يكن جباراً شقياً. قلت ذلك بالرغم من غضب مادوا منى لعدم تأكده من إيمانى بدعوته الخاصة بلون المسيح، إلا أنه ظل يستمع لى ويستفسر أكثر عن الإسلام، وشغف جداً بمعرفة لون بشرة سيدنا محمد، وأيضاً الأركان الأساسية الرئيسة لدعوته، وخاصة فى إيمانه بأن كل البشر سواسية بغض النظر عن اللون.

قال لي "مادوا" إنه يمكن أن يصلى فتصل الشمس إلينا، أو يمكن أن يتلو آيات من الكتاب المقدس في أذني فأبرأ من السعال كما كان يفعل السيد المسيح. ولكن لم تكن ببوسطن شمس فى فصل الشتاء هذا ولم تفلح صلواته ولا خلوته.

"الدفء والحليب هما العلاج، وأيضاً الخروج من هذه الزنزانة" هكذا قال الطبيب الذي خصص لعلاجي، كان فلسطينياً يعيش فى الولايات المتحدة ويحلم بالعودة لفلسطين؛ ليعالج جرحى الانتفاضة، ولكنه

متزوج من امريكية التي قالت له: "إن ذهبت هناك فاعتبر أن أولادك وزوجتك فى عداد الأموات" فطلب نقله من المستشفى الكبرى التى كان يعمل بها وفضل أن يعالج المرضى البؤساء وخاصة من المغتربين والعرب وطمأنني أن الشفاء من الله.

قال لى إنه يرى فىّ ابنه الذي كان يحلم أن يعيش معه في القدس، ويصلى معه هناك، ويشترى بيتاً صغيراً ويزرع أمامه بعض أشجار الليمون والزيتون، ولكن زوجته وعنادها قتلا فيه كل أمل فى الاختيار، وأنه كبر بما فيه الكفاية فى أن يحارب ويبدأ من جديد، وأكد لى أن الأمل فى الشفاء هو الإرادة، وأن سبب علتي هو الإحباط واليأس من الخروج، فنصحني أن أكتب لوالدتي وأهلي فى مصر، "فأهل مصر كلهم شهامة وجدعان والعمود الفقرى للأمة العربية" هكذا قال، وهو يضحك ويتحدث بالعامية المصرية، وكأنه جمال عبد الناصر.

خفت أن أموت ولا يعلم بموتى أحد، وتضخم الإحساس بالوحدة والخوف والذنب، وترددت فى أن أخبر أمي بما حدث لى، وكيف ستستقبل الخبر وتراءى أمامي تاريخ حياتها كله فى لحظة إمساكي بالقلم. كانت ابنة رجل بسيط، يعمل " صولاً " في الجيش المصري، جده

خرج ﰲ انتفاضة عرابي ويحكى أنه مشى من مدينة الزقازيق حتى القاهرة؛ ليقف مع "عرابي" فى مواجهة الخديوي يندد بالظلم والجبروت، وأنه حارب أيضا ﰲ موقعة "إلتل الكبير" التي هُزم فيها عرابي نتيجة الخيانة، وورث أبوها حب المعرفة وأنه رزق بسبع من الإناث، وأنه لم يسود وجهه، ولم يعبس ﰲ وجه زوجته يوماً، وأنه أصر على تربية بناته تربية حسنة وأنشأهن على لباس التقوى، وأن كل واحدة منهن تعلمت تعليما جيداً وتزوجن من أزواج ذوي مكانة طيبة ﰲ المجتمع، رآها أبي عندما كان ﰲ مهمة ﰲ الزقازيق، تخرج من مدرسة المعلمين وتحمل الكمان، كانت كالشمس وقت الضحى تمشي برقة على الأرض فأحبها وتبعها حتى منزلها، ولم يخرج حتى حدد ميعاد الزفاف.

وجاءت إلى القاهرة وحيدة ﰲ عالم لا تعرف عنه الكثير سوى بعض القصص التي قرأتها أو بعض الحكايات ﰲ المسلسلات الإذاعية التي كانت تتابعها ﰲ صوت العرب الساعة الخامسة مع والدتها وأخواتها البنات، خافت من هذا العالم المفتوح، وأغلقت أبوابها عليها كالريفي الذي تصدمه برودة المدينة واتساعها. هو الآخر كان يمنعها من الخروج إلا ﰲ مناسبات خاصة لزيارة الأقارب، ولكنها كانت تجتهد ﰲ عملها،

وتريد أن تثبت للقاهريات أنها أفضلهن، وأن الفن لا يعرف الأقاليم وأن الموهبة والالتزام هما أساس نجاح الفتاة.

كانت تحب "نجاة الصغيرة" كثيراً، وتعجب بأناقتها، وتغني أغانيها وخاصة "ماذا أقول له؟" لنزار قباني، وتردد: "الحب في الأرض بعض من تخيلنا، لو لم نجده عليها لاخترعناه"، وكانت لها نظراتها الحنونة، ونبضها الرومانسي، وكانت ضحكتها رنانة تفوق حلاوة موسيقى الكمان التي كانت تعزفها. وعاشت وسط الأسرة كرمز للأناقة والفن.

قطع شرودي بألم شديد فى صدري، وسمعت صوت الحارس ينهر بعض المساجين فأسرعت بالكتابة لها، وأخبرتها بالأمر كله، فأرسلت لى خطابا وطمأنتنى، وقالت إنها ستظل تحبنى وتحترمني طوال العمر، وستعمل جاهدة أن تخرجني من هذا السجن، وأوصتني بقراءة سورة "يوسف"، وأن أطلب من الله أن يحررني من الأسر؛ لأنه ينجي عباده الصالحين، كنت أضحك وأبكي وأتساءل هل أنا من الصالحين؟ فأنا لم أفعل غير السوء، ولكن الحقيقة التى يجب أن أذكرها أن كل امرأة مارست معها الحب كانت زوجتي فقد كنت أعترف قبل معاشرتي لها أنها زوجتي، وأن هذا بعيد جدا عن الزنا وكنت أصر على أن أكتب عقدا

عرفيا أعترف به أمام الله بزواجى بها وقبولها لى زوجا، لا تعتقد أنى من الزناة، ولكنني رجل يمكن أن تقول شهواني، وضع الله فىَّ حب النساء، تماما مثلما يحب نادر الكتب، والعلم، والسفر، والحديث مع الناس، لكل منا شهوات متطرفة.

❖ ❖ ❖

الربيع:

بقدوم الربيع برأت، والشمس التي صلى مادوا كثيراً أن تشرق على الزنزانة سطعت بقوة، وتعافيت وبدأت أمارس الرياضة، وأتجنب الحديث مع المدمنين والمنحرفين، ولم أتعامل معهم باستفزاز، فقط أظهر الجانب الكئيب من شخصيتى فظنوا أنني مريض نفسيا، فابتعدوا عني تماما، وساعد على ذلك ملامحى الغربية التى توحي بأنني أمريكي، وليس مهاجرا يائسا.



الدكتور طارق شاب أشقر يميل إلى القصر منه إلى الطول، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة لو تغافلنا عن بعض التعلثم والتوقف بدون داع، حسن الخلق، قابلنى وابتسم فى وجهى وطمأنني على براءتي وذلك من خلال حديثه مع المحامي الذي كلفه بالدفاع للإفراج عني بعد دفع الكفالة وقال:"إن الظلم موجود فى كل مكان، ولكن فى الغربة لا تعطيهم الفرصة أن يتطاولوا عليك فأكثرهم قساة القلوب، ولكن بالقانون والفلوس ستأخذ حقك، فلا تخف" ثم أضاف، "خالد ونادر مثل إخوتي وأنت الآن مثل أخي تامر، الذي يعيش فى كندا ".قابل طارق

المسئول عن الإفراج عني، وشرح له ظروفي، فلم يهتم، فدفع الكفالة وها أنا أنتظر خروجي حتى الآن،وحيد فى زنزانتي بعدما غادر "مادوا" الزنزانة حين اكتشفوا فجأة أن مكانه ليس فى سجن الولاية بل فى مصحة الأمراض العقلية. قبل أن يخرج مادوا رسم على الحائط صليبا كبيراً، ويجواره شمس مشرقة وفم يبتسم ابتسامة كبيرة كتب عليه اسمي والذي كان يشبه فمي كثيرا.



تسليم مقتنيات... ضعف شديد. شريط كاسيت، دفتر يوميات، حبوب مهدئة، شراب للكحة، تغيير ملابس، رجال أمن..... طائرة، طنين فظيع، طائرة كأنها ستهبط في المحيط، ليل ونهار. ضعف شديد في الإبصار.... حرارة شديدة — زحام شديد.

هذا ما حاولت كتابته وإضافته من مذكرات معظمها ممحو.



القاهرة: ٢٠٠٠

ستری الآن "باسم" فی وسط البلد یجلس علی مقهی البستان، أو ماسكاً بيده فتاة ربما يابانية أو أمريكية، أو سائحة من أی بلد، وستراه أيضا فی محل العطور بشارع محمود بسيوني، أو بزار لبيع أوراق البردي، ينظر فی عين البائع فيفهم أن معه زبونة ترید أن تشتری، ویجب أن یغالی من ثمن البضاعة حتی يأخذ باسم عمولته، وستراه يرتدي ملابس تشبه ملابس الأجانب في موضتها وبساطتها، وستری وجهه مليحا مثل الغرباء، أيضا ويمشی مشيتهم بقوة وغرور ودهشة، ويبتسم ابتسامة الثقة والخبرة.

وفی آخر الليل سيذهب إلى أحد الأزقة الضيقة المظلمة فی منطقة "كوم السمن" ليشتری الأفيون؛ ليساعده على الاسترخاء، والنوم العميق، وسيقلل من الإضاءة في حجرته إلى أقصی درجة حتی؛ لأن الإضاءة الشديدة تذكره بالمصباح النيون الذي كان الأمريكان في السجن يسلطونه عليه كنوع من التعذيب حتی يعترف بحقيقة ضربه لزوجته، وسيفتح كل النوافذ رغم الشتاء القارص ليشاهد النجوم، ويشعر بالحرية، وفی النهار سيتعمد أن ينظر للشمس التي حُرِمَت عليه

فى السجن، ويتذكر مادوا ودعوته له بالنجاة. وسيركن بعد سنة من قدومه من أمريكا لفتاه كندية يهودية تدعى "جودى"، تعرف عليها فى شرم الشيخ بعدما زارت إسرائيل، وبعد عدة مقابلات اعترفت أنها قريبة له قرابة الدم،وأن العرب واليهود عرق واحد وأبناء عمومة، وأن سبب تمسكها به أنها رأت رؤيا أن ضلع الرجل الذى خلقت منه هو ضلع رجل مصري جاء إلى أمريكا ليبحث عنها ولكنه فشل هناك فى العثور عليها لأنها ليست أمريكية، فأتت هى إليه لتكمل أضلاعها الناقصة بين أحضانه، ولتبحث عن معنى الشرق بين ساقي رجل مصري ربما يوهبها بماء منيه معنى الخلود، وأنها ابنة أحد أغنياء كندا وأبوها لديه متاجر عديدة، فيدعوها لتسكن معه فترحب بالفكرة بالرغم من عدم ملاءمة الشقة للسكن ولكنها ستقول ليس مهما، وستشترى بعض نباتات الظل لتعطيه إحساسا بأنه يسكن غابة طبيعية، وستعلق على الحائط صورة لفتاة جميلة تحمل طفلاً بين ذراعيها، أو قطعة سجادة اشترتها من حى الخيامية من رجل عجوز فتضفي روحا على الشقة، وفى ركن من الأركان سترى بعض الروايات الإنجليزية لستيفن كينج Stephen king، وجون جريشم John Grisham أو قصة غلافها قديم لتشارلز ديكنز "David Copperfield ديفيد كوبرفيليد" أو Pride and

Prejudice لجان أستنJane Austen وفى وقت حديث ستجد رواية عربية وحيدة هى "عمارة يعقوبيان" لعلاء الأسواني.

وسترى قطة صغيرة ستكبر مع المرات القليلة التى تزوره فيها، سيقول لك إنه اشتراها من "سوق الجمعة" بمنطقة السيدة عائشة، وأن جودى رأفت بحالها لنحافتها وهزالها وأنها عالجتها وخاصة فى مناطقها الحساسة، وأطعمتها حتى كبرت، وأنها تخشى عليها من القطط الذكور الذين ينتظرونها على درجات السلم، وسيقول لك باسم إنه يعلم تماما أنها ليست قطة "سيامى" خالصة بل هجين، وأنه لا يحرمها من الدخول والخروج فقد صنع لها بابا من الحديد على شكل مربعات له فائدة أخرى هو حماية شقته الخاوية من اللصوص، وعندما علقت أنه مثل باب السجن، قال " الحياة سجن كبير "

وستدفع هى إيجار الشقة، التى ليس بها أي أثاث سوى أريكة قديمة أعارتها إياه والدته ومرتبة متسخة عليها منيّ، وبقع دماء، وعرق ليال طويلة حيث نامت عليها فتيات مغتربات جئن لأغراض متعددة، وتضاء بالمصابيح سعة الـ٥٠ وات، وستشترى له سيارة "فولكس واجن"، وستسدد له فواتير الكهرباء والمياه، وستدفع له إيجار الشقة للسنة الماضية والسنة

القادمة، وستذهب معه لمقابلة السياح وستشاركه فى الربح ولكن الويل له لو ضاجع امرأة أخرى وأنها ستفكر يوما فى الإنجاب ولكن تخشى أن تنجب توأماً؛ لأن والدتها انجبت توأمين غير متماثلين هي إحداهما وستفرح بصداقة نادر كثيراً وستقول عنه إنه رومانسي، وأن الفتيات سيخدعنه كثيرا لطيبته، ورقته، وأنه عبقري وسيكون له شأن فى الكتابة لحساسيته. وستذهب مع باسم بعدما توسط لهما نادر ليعملا فى أوبرج الفيوم: باسم فى الاستقبال، وجودي رئيسة لقسم النظافة، وسيشهد نادر على زواجهما العرفي بعدما قال مدير الفندق أنه ضروري لكى يسهل لهم الاقامة والعمل فى الفندق، وليتصالح اليهود والعرب بهذه الزيجة. سيسكنا غرفة تخصهما وحدهما، بها سرير مريح، ومرآة كبيرة تجلس أمامها جودى تدهن جلدها الرقيق بكريم "نيفيا" لتحميه من أشعة الشمس المحرقة وأيضا بها حمام به ماء دافق دافىء بفعل سخان خلايا الشمس الذى يعلو قبة الحجرة. سيمكث باسم ليالي طويلة بجوار بحيرة قارون الساحرة وسيحدثها كثيرا عن قارون الذى خسف الله بقصره الأرض فتحب المكان؛ لأن أجدادها اليهود عاشوا فيه، وسترتدي هى الحجاب حتى لا يتحرش بها الفلاحون عندما يركبان الميكروباص من الفيوم الى القاهرة، وستذهب لزيارة والدته التى ستحبها

كثيرا؛ لأنها بريئة وصغيرة وتقف بجوار باسم وتساعده على التأقلم ثانية مع الحياة فى مصر، وستدخل كل بيوت العائلة، وستتعرف على كل أفرادها وستسأل عن تفاصيل كثيرة، وسيرضى باسم شغفها وحبها للمعرفة والمعلومات.

وستقول والدة باسم لكل أفراد العائلة إنها لطيفة ومهذبة وأنها لا تأكل اللحوم (نباتية)، ولا تفضل إلا أكل "السيبا" من الأسماك. وستأتي والدة "جودى" الى القاهرة لتأخذها معها وتنقذها من باسم بعدما عرفت تماما ما حدث له فى بوسطن وفى سجن الولاية، أليس ما يحكم أمريكا الحاسب الآلي الذى يحفظ كل المعلومات عن البشر فى الكون وخاصة إن كانوا من المسلمين والعرب؟ وستأتي لمنزل نادر ويستقبلها أحسن استقبال وسيدعى التسامح وسيعد لها ولجودى مائدة فكانت عيداً، والدة جودي بدت سعيدة بحضورها للمعادي وقالت إنها تشبه كثيراً المنطقة التي تعيش فيها في كندا كانت ملامحها شرقية حتى شك نادر أنها من عرب إسرائيل، ولكنها قالت إنها بلغارية هاجرت إلى كندا منذ فترة طويلة مع والدتها هربا من الاضطهاد النازي لليهود، وأنها وجدت كندا المكان المناسب لحياتها، ولكنها كانت تحلم دائما بوطن تعود إليه في يوم من الأيام، ثم ذكرت أنه بدأت حياتها

كعاملة في ورشة صغيرة لتقطيع الماس، وصناعة الحلي، وأنها اصبحت رئيسة للعمال في شهور قليلة، وكادت أن تمتلك متجراً في هذا المجال لولا أن صاحب العمل طلب منها ذات يوم أن تسافر لجنوب أفريقيا، واعتقدت أنها فترة للتدريب أو زيارة مواقع المناجم، ولكنه طلب منها أن تخفي بعض الأحجار في علبة مكياجها، وبجوار مناطق حساسة في جسدها، قالت إنها رفضت لأنها في ذلك الوقت قد وقعت في حب والد جودي، وأنها كانت حاملاً بها ولم تشأ أن تضحي بحبها من أجل المال، ووافقت أن تعيش مع والد جودي برغم فقره، وأنها ببعض الفصوص الصغيرة من الماس التى أعطاها لها عامل زنجى ساعدته أن يهرب بعقد عمل مزور ليعمل به فى بلجيكا حيث يوجد فرع آخر للمصنع، ضحكت، وقالت إنها كادت تقع فى حبه فقط لجمال شفتاه وامتلائهما عندما قابلها فى إحدى الغابات، وكانت الزرافات تطل عليهما بمحبة ودهشة، وأنهما بهذه الأحجار الخام استطاعا أن يشتريا، هى ووالد جودى، متجراً ثم قاما ببيعه فربحا بعض المال ثم قاما بتأسيس وكالة لبيع المتاجر، وفي غضون سنوات قليلة أصبح ذا شأن اقتصادي كبير في المدينة التي يعيشان بها.قالت لا تعتقد أن هناك من يساعدنا فى العالم نحن الذين نساعد بعضنا بعضا بعدما أدركنا المؤامرة ضدنا منذ عهد النازية، ثم

قالت نحن اليهود مثل حيوانات البندا يجب الحفاظ علينا؛ لأننا مهددون بالانقراض بسبب القنص والصيد من الجميع، والقناص لا يهمه سوى الربح بالاستفادة من فروتنا وجلودنا، وإن نجونا فمصيرنا لحدائق الحيوان حيث نكون فى مأمن وفى الوقت نفسه دليل على وجود هذا النوع فى يوم من الأيام. فترد عليها قائلا: وأطفال فلسطين يموتون فى المخيمات، وتتعفن جثثهم لعدم وجود ثلاجات تحفظ أجسادهم المقدسة لحين دفنها عندما يطلق عليهم الصهاينة النار. فردت: فى دولة الإرهاب كل شيء مباح فأكمل الجملة قائلا إن لم يكن الضمير موجوداً. غضبت وقالت: تسامحك مشكوك فيه من حق اليهود أن يكون لهم وطن، وبيد الفلسطينيين أن يصنعوا لهم وطنا بقليل من التنازل والتسامح، فضحك نادر وسكت؛ لأنه لم يكن يريد أن يفسد الدعوة بالكلام الغامق فى السياسة. لم يتدخل باسم وظل صامتا يستمع للمناقشة محاولاً أن يربط أجزاءها ليستخلص حكمة من ورائها ربما اعتقد أنها تبارك هذه العلاقة مع ابنتها مصدقاً فكرة كفاحها مع زوجها منذ البدايات متجاهلا تماما فكرة اليهود..



وبعدما تغادر جودى ووالدتها منزلك سيهاتفك "باسم" ليلاً ليقول لك إن والدة "جودي" خطفتها دون علمه وأنه سينتحر، فتذهب إليه فتجده منهاراً يمسك بحد موسى ليقطع شريانه فتُهدّأ من روعه وتمسح دموعه، وتحاول أن تجعله ينهض من الفراش وتسمع حكايته من بدايتها. ويقول لك إنها الوحيدة التى جعلت لحياته معنى، وإنها كانت حنونة وطيبة، وأن الحياة خاوية من كل معنى منذ الدقائق التى غادرت فيها هذا المكان الذي تركت في كل ركن من أركانه ذكرى جميلة، ورَوحاً خلاقة، ورائحة عطرة، ولأول مرة تعرف معنى الحب، وتشعر بإحساس المحبين فتشعر بالأسى والغيرة منه، وتتمنى أن يسكنك هذا الشعور حتى ولو يكلفك الأمر حياتك. تقول إن الفراق كان متوقعاً وحتمياً وأنها مثل غيرها كان من الواجب أن ترحل من حياتك وتسافر لبلدها يوماً ما وأن أمها لم تأت لتبارك زواجها بك ولكن لتنقذها منك، وأنها ساعدتها في ذلك بموافقتها حتى إنها رحلت دون أن تودعك أو تستأذنك بالرغم من أنك لاحظت ذات مرة تذكرة سفر باسم جودي نستها الأم على الطاولة، ولكنك لم تفاتح جودي في الأمر، واعتقدت أن هناك تذكرة أخرى لك في حقيبة أخرى، وأن هناك مفاجأة تنتظرك وكانت المفاجأة رحيل جودي فشعر أنها خطفت منك في ضوء النهار

أمام البشر بمجموعة من الشباب الضائع، ولم تستطع أن تفعل شيئا وكأنك مخدر.



مؤامرة مثل الأقدار التي تتآمر على بعض البشر فتسلب منهم السعادة كان تآمر جودى ووالدتها عليك أمر حتمياً ونهائيا، هكذا تخبر باسم لتخفف عنه فينفي ذلك، معللاً أن جودي بالبراءة والنقاء فمن الصعب أن تخون، ثم يتسحب بوهن على الفراش، ويعطيك خطاباً تركته جودي قبل أن ترحل قالت فيه: إنه كان سراباً مثل الرمال التي تلمع من بعيد فيحسبها الظمآن ماءً ولكنها خداع، قالت إنها كانت ظمأة لمحبته، وإنها ارتوت حتى فاض ماؤه عليها، وكاد يغرقها، وأنه كان يجب أن تخرج رأسها من عمق محبته التي كانت كالمحيط حتى تستطيع أن تعيش وتحيا، وإلا فستغرق وتذوب فيه، ثم أضافت " والدتي لم تجبرني على الرحيل، ولكن ساعدتني عليه، كان يجب الابتعاد عن مركز جاذبيتك حتى أستطيع أن أتحرر من مدارك، لا تعتقد أنني خدعتك، أو عطلت عليك سعادتك، ولكن كان يجب أن أختفي ؛ كي تعرف إن كنت سعيداً معي أم لا ؟ لقد أعطيتك كل ما عندي، وها أنا

أختبر عطاءك. نعم كان كافياً وزائداً في كافة عواطفك، وكان ناقصاً وغير مكتمل في عملك واجتهادك. نعم لم تطلب مني المزيد من المال، ولكن شعرت أنني أمثل شيئاً هاماً لك في جانبي المادي، فاضطررت أن أبتعد لكي تعتمد على ذاتك، وتعرف معنى الاجتهاد. لقد ضحيت بالكثير، وأنت تعرف ذلك، لقد تخليت عن ديني من أجلك هل تعرف أنني أعتبر مرتدة في تعاليم التلمود، وأنني فقدت هويتي الدينية بزواجي من مسلم ! بالرغم من أنك لم تجبرني على الإسلام، ولم تلمح يوماً برغبتك في أن أعتنقه ! وكنت تعنف "نادر" إن حاول أن يتحدث بحماسة عن الدين وقيمته. لقد أعطيتني الكثير وأنا ممتنة لك ومقدرة إخلاصك والتزامك بي هذه الفترة، ولكن عائلتي ترى أنك مختلف عني، وأنني مازلت صغيرة أن أتحمل مسئولية الزواج. كان رحيلي إلى إسرائيل ثم إلى مصر تجربة يجب أن أمر بها ؛ لأختبر قدرتي على التعايش بمفردي، ومحاولة لاكتشاف العالم، ولكن نجمة حظي أرشدتني لموقعك، وقلت سأكون معك أينما تكون؛ لأنك العربى الوحيد الذى عاملنى كحبيبة وصديقة، ومواطنة، وليست كخنزير، أو قرد يجب عزله ونبذه. بل باركتنى وفتحت لى ذراعيك وقلبك، وقتلت أسطورة العداء بين بنى إسرائيل والعرب ، اختصرت آلاف السنين من

الكراهية والتربص، فجئت إليك بكل المحبة، ونهلت من مطرك المنهمر، وتحممت بعطرك الشذي، وأصبحت وطني وعائلتي وعالمي، ولكن ما زال الكثير أمامي لأتعلمه غير لغة الحب والجسد، هناك العقل الذي يجب أن يتطور، والفن الذي يجب أن يدرس ويمارس، أريد أن أكمل الجامعة التي تركتها، والكتب التي علاها التراب منذ أن أتيت إلى القاهرة، لا أنكر أنك قد أيقظت حواسي وجعلتني امرأة جديدة، أرى العالم بعيون إنسانة عاشقة، ولكن أين أنا الآن ؟ يجب أن أنتقل إلى مرحلة أخرى، لقد شبع الجسد وآن للروح أن تشبع فكان لابد من الرحيل.

حضن الخطاب ثم اتجه ناحية الحائط، وأجهش بالبكاء، فتتركه وحيداً، وتغادر المنزل في الظلام الدامس.

وسيأتى إلى منزلك في أوقات كثيرة يستعمل جهاز الكمبيوتر ليكتب رسائل إليكترونية "لجودى" فيجلس بالساعات، ولا يكل، وستتضايق من وجوده أحياناً، وستشعر بعدم جدوى ما يفعله، "فهى ذهبت ولن تعود"، ثم يجئ لك ويقول لك نادر لقد طبعت لك كل رسائل البريد الإلكترونى التى كنا نتبادلها أنا وجودى حتى الآن، أعتقد أنها ستصلح لأن تكون أجمل قصة حب فى العالم، فهى أذكى وأرق امرأة

قابلتها فى حياتى، وأكثرهن معرفة بى وبأحوالى، فترد عليه هل حقا عرفتهن كلهن ؟ فهم غرباء مثلك لا تجمعكم إلا الغريزة والرغبة فى اكتشاف أعمق للجسد، والحب هو الشيء البعيد تماماً عن فراشكم، وسيقول لك إنه متنازل عن حقوق المؤلف، ويكفى أن تهديه أول نسخة موقعة بإمضائك: لجودى وباسم إلى الأبد.

وسيخبرك بعد فترة أنه يريد أن يسافر إليها ولا يستطيع نظرا لفقده جواز سفره ومشكلات مع التجنيد وقضايا كبيرة وعديدة فى بلد لا يزال تتحكم فيه قوانين الطوارئ وصحيفة الحلة الجنائية (الفيش والتشبيه)، وأنه لم يكمل تعليمه في أمريكا، ولا يستطيع أن يحصل على عمل بدون واسطة، وأن نقوده التى ادخرها فى أحد البنوك هناك لا يستطيع الحصول عليها نظراً لتحفظ الحكومة الفيدرالية عليها ربما لتشككهم أن هذه النقود من أولجا التى كانت تتجسس على الولايات المتحدة لصالح KGP، ولكنه سيقاضي الحكومة الفيدرالية عن طريق هيئة قضائية عالمية خاصة بحقوق الإنسان لها موقع كبير على شبكة الإنترنت وقد بدأ يراسلهم وهناك أمل فى أن يسترد نقوده، فيقابلك مرة أخرى وأنت خارج من أتيليه القاهرة، فيسلم عليك بحرارة، ولا يهتم بأحوالك او بزوجتك التى لا تفهمك وتريد أن تنفصل عنها، أو

مشكلاتك فى الجامعة، ومحاولتك المستحيلة لأن تكتب نصاً حقيقياً يعيش بعد موتك، فيعرض عليك أن ينقلك بسيارته إلى أى مكان ترغب فيه ثم يدعوك لمنزله فى المنطقة النائية التي تسمى "المسبك" بمدينة نصر، فتتردد أن تذهب معه؛ لأن الوقت متأخر ولديك أشياء كثيرة تفعلها فيغريك بأنها فرصة لتسمعا الموسيقى، وسيعزف لك مقطوعة لعمر خورشيد كان قد عزفها فى حفلة لعبد الحليم فيذكرك بعمر خورشيد الذى قتل فى حادثة فى شارع الهرم ربما بسبب علاقة غير مشروعة بابنة أحد رجال الدولة المهمين، ثم ترفض الذهاب فيقترض منك بعض النقود، فلا تتردد أن تعطيه إياه فأنت "نادر" الكريم رقيق القلب، والذي تتذكر له كيف استقبلك استقبال الملوك فى ميدان هارفرد Harvard العريق وكيف استضافك فى منزله، وكيف كان يعطيك بعض النقود لتذهب للسينما، ربما ليختلى بأولجا قليلاً، وكيف سرق" تى. شيرت" ليعطيه لك كهدية، وسمح لك بمشاركته الفراش، ولم يرضَ أن تفترش الأرض كالكلاب، وكيف توسل إليك أن تبقى معه، ولن تنسى أيضا الرحلة التى أصطحبك معه إلى المحيط الأطلنطي الذي طالما حلمت به، وسبحت فيه وجئت تحكى لأهلك عن انبهارك بأمريكا؛ وتؤكد لهم أن "باسم" موجود وناجح وسيحقق الحلم،

وعندما تقرضه النقود ترثى لحاله، وتود أن تصطحبه معك إلى منزلك تقدم له العشاء الساخن، وتشعره أنه لا يزال حياً ولكن تخشى زوجتك التى تنام مبكراً وترفض استقبال الغرباء، ولكن لا تبالي بها مطلقاً، وتفعل ما يحلو لك معه.



وستمر الأيام وسيبقى باسم كما هو، وسترحل جودى وستحل محلها أخريات، وستدخل المصريات والمواطنات الحلبة فتبدأ "نادية" بالدخول فى حياة "باسم" كفتاة تساعده أيضاً على اصطياد الأجانب، سيتزوجها باسم بعقد عرفي وهي فى السادسة عشرة من عمرها، ستقابلها أكثر من مرة معه فى وسط البلد أمام مكتبة "الشروق"، وسترتدي دائماً بنطلون جينز بيج وقميصاً من اللون نفسه، وفوقه معطف قصير، وسترق لها عندما تراها، وترأف لحالها وتقول إنها يجب أن تكون في منزلها الآن تذاكر دروسها، أو ترتب المنزل مع أخواتها، أو تتحدث في الهاتف مع صديق لها وتوهم عائلتها أنها صديقتها في المدرسة.وسيقدمها لك، وستتحدث هي بسهولة وفى عيونها براءة تجعلك تبكي من أجلها، وتتمنى أن تساعدها لكي تخرج من هذا المجال.

ﻓﻲ مرة أخرى ستقابلها، وستكون أنت أيضا وحيداً وشارداً، وستدعوها لتناول الشاي معك ﻓﻲ مقهى "ريش"، ويستغرب صاحب المطعم وجودك معها، وهو الذي يعرفك تماماً، وسينظر إليها الجالسون معه نظرة استنكار فلا تهتم، وتدعوها للعشاء، وأثناء الحديث تعترف بحبها لباسم بالرغم من أنه يجبرها على أن تفعل أشياء لا تحبها كشراء المخدرات له ليسعد عشيقاته. وستغادر المكان، وستقابل "باسم" وتخبره بما قالته فيحكي لك عن طيبتها وخبثها فى الوقت نفسه؛ لأنها أرادت أن تورطه فى جنين لا يدري من أين حملت به؟ وإن كان منه فلماذا لم تخبره بذلك من قبل؟ وسيطلب منك أن تقرضه ثمن عملية الإجهاض، فترفض وتطلب منه أن يتزوجها بدلاً من إهانتها هكذا، وتتوق أن تعرف ماذا حدث لنادية، وستعرف بعد فترة أنها تخلصت بمعرفتها من الجنين، وأنها ترتدي الحجاب الآن، وأنها ستكمل دراستها، وأنها لا تزال تحب "باسم" برغم غدره بها، فتخبرها بأنها مخطئة؛ لأنها أوقعت نفسها فى هذا المأزق، وتعاملها على أنها إحدى تلميذاتك أو قريبة لك تماما كما فعلت مع أولجا، وتمشي بها ﻓﻲ وسط البلد وتدعوها لتأكل معك بعض الحلوى من جروبي، وتشتري لها زهوراً فتقول إنها أول مرة يشتري لها أحد وروداً حمراء، وتذكرك أن اليوم هو "عيد الحب" فتضحك من

المصادفة، وسترى فى عينى نادية الدموع والحزن، وتتمنى ان تفعل اى شيء لكي تسعدها وعندما تلمح هى إحدى الأجانب تتركك فتستنكر أنت هذا السلوك، فتعتذر لك وتقول: "اسمح لى، سأذهب لأبحث عن رزقي؛ فأنا فقيرة وضعيفة لست كباسم، فوالده غنى وفى المخابرات، انا والدي عامل فى مصنع للزجاج بشبرا الخيمة، ووالدتى ليست عازفة كمان "، تشكرك وتتعجب أنك قريب لباسم وتعطيك عنوانها البريدي وتطلب منك أن تراسلها، فلا تفعل؛ لأنه ضاع منك، أو تقول لك إنها دائماً ما تجلس في مقهى " افتر ايت AFTER EIGHT" او المشربية او التكعيبة؛ حيث يمكنها أن تأكل فولاً أو تحتسي شاياً، وأنها أحيانا تقف أمام مطعم فلفلة حيث يجتمع الأجانب فيمكنها محادثتهم، أو تناول الكشري، أو الشاورمة. وتمر أنت دائماً بهذه الأماكن فربما تراها وتنصحها أن تذاكر، وأن تستأنف دراستها، وأنه يمكنك أن تساعدها.

ستحكى لك نادية كيف أن والدها فقد وظيفته بعد خصخصة المصنع الذي كان يعمل به، وأن المعاش المقرر له لا يكفى لإطعام خمسة من الأطفال، وأن الأم تدبر قوت يومهم بالكاد، وأن الأب أصبح عاطلاً تماماً عن العمل، لأنه ضعيف وغير قادر على الأداء البدني العنيف وتصدقها؛ لأنها هى أيضاً هزيلة البنية ونحيفة، وكأنها طفلة ص نيرة لم

يكتمل نموها، وستعترف لك أنه لا أحد من الجيران أو الأسرة يعرف غير أبيها الذي يشكرها على تحملها المسئولية معه، ويعلم أن ضياع فتاة ليس مثل ضياع أسرة بأكملها، وأنه قابل أكثر من مرة باسم وتوسل إليه أن يكمل جميله ويتزوجها طالباً منه أن يتوسط له عند أبيه ليبحث له عن وظيفة، وستحكى لك كيف أنها تخاف من أبيه هذا، وأنه هو الذى دمر حياتها وحياة ابنه بقسوته وعدم اكتراثه به منذ بداية حياته وأنها ذات مرة هى وباسم رأته يجلس مع فتاة تصغره كثيراً فى مطعم "أبو شقرة" بالقصر العيني، وأنه لم يخجل منا ولم يدعنا حتى للشراب أو الطعام مع أننا لم نكن نأكل غير الفول السوداني لمدة يومين. وأن هذا الرجل يفعل أشياء ويحرم ابنه منها، وستقول لك إنه ليس مخلصاً ولا يحترم سنه، فقد راودها أكثر من مرة عن نفسها عندما كانت تزوره هى وباسم، وأنها كان من الممكن أن تحكي لباسم ولكنها لم ترغب فى المزيد من العداء والحنق بينهما، ولكن فى يوم من الأيام ستنفجر فيه، وتقول له إنه ظالم، ولا يستحق لقب أب أو حتى إنسان، وإنها صغيرة الجسد والسن، ولكنها كبيرة القلب، وأنه فى استطاعتها أن تتحمل المسئولية وتكمل الطريق مع باسم حتى النهاية، لأنها بالفعل تحبه بصدق، وأنه ملأ عليها كل حياتها وعوضها الحرمان الذى رأته فى حياتها، وأنها لا

تطمع فيه لأنه ابن ناس أو سلطة، ولكن لأنه حنون، ويعرف كيف يتعامل مع النساء، وهو رجل بكل المعاني. وستقول كم هى مخلصة لباسم، وأنها لم يمسسها أحد من هؤلاء الأجانب الذين تعمل معهم أو ترشدهم إلى أماكن البازارات، بل هى حريصة كل الحرص أن تحافظ على نفسها من الرذيلة برغم الإغواءات التى تصادفها كل يوم مع كل رجل تقابله فى الشارع وفى وسط المدينة، وأنها لو استمعت لكلمات الإطراء لوجدت فى كل خرابة أو مقلب قمامة أطناناً من القطن تحمل جثث أجنتها المجهضة، ستقول لك إن الأجانب يرونها خارقة الجمال برغم كونها عادية كما يقول باسم، وستقول لها إنها تشبه "حنان ترك" وخاصة فى لمعان عيونها ورشاقتها وفطنتها كما تظهر على الشاشة، ولكنها ستقول لك إنها تفضل أن تشبهها "بأنغام" فهي رقيقة وحساسة وصوتها جميل وقوية الشخصية، ولا تهزمها الصدمات بسهولة، وستقول لك هل سمعت أغنيتها "ببساطة كده وبكل وضوح .

أنا عايشة كده بقلبي المفتوح

عالناس والعالم كله

حنادى زماني واقول له

أنا كلى شباب وآمال وطموح......"

فتفرح بالكلمات وترددها، وبعدما تتركها تذهب لتشترى الألبوم وتحفظ الأغنية بسهولة، وستتذكر قول نادية إن الرجل الغربي أكثر رومانسية من الرجل الشرقي، ولا يعامل المرأة باحتقار ولا يعانى الازدواجية، ولا يصاب بعقدة الذنب حتى من الحديث أو تقبيل امرأة أجنبية عنه، وإنه عندما يحب يعطى كل شيء. فتقول لماذا لا يكون الرجال الشرقيون هكذا مثل الغربيين؟ فتقول لك أنت مختلف عن هؤلاء، بعد فترة تذهب أنت كثيراً إلى وسط المدينة وترى "باسم" دائماً يمشى مجدداً مع أحد الغرباء وتتمنى أن ترى نادية فلا يحالفك الحظ أبداً.

❖ ❖ ❖

طلعت هو المسئول عن أصدقاء الأجانب في وسط البلد؛ فهو العالم بجميع أحوالهم، وهو المنظم لأنشطتهم، ويجتمع معهم دائماً في مقهى البستان، يتحدث معهم، ويحاول أن يحل مشكلاتهم وهو صديق أيضا لمعظم ضباط السياحة في القاهرة، وخاصة منطقتي قصر النيل والهرم وهو أحيانا مخبر وعين للبوليس عند سرقة أحد الأجانب أو مقتلهم،

وكان المرشد الأول في مقتل السيدة الفرنسية التي ذبحها أحد "الخرتية" بسبب خيانتها له مع بواب من النوبة وأيضا لرفضها إعطاءه بعض النقود أحتاجها لعلاج والدته المريضة، التي رقدت شهرين في مستشفى القصر العيني في انتظار دورها في العملية، يتوسط عند نشوب أية مشاجرات بين الخرتية الهواة والمحترفين، فالهواة هم طلبة كليات اللغات من الألسن والآداب ومعاهد سياحية، الذين تقتلهم الرغبة في صداقة الأجانب لتعلم اللغة وممارستها والبحث عن عقلية غربية نظيفة وبين الخرتية المحترفين الذين يبحثون عن لقمة العيش، وسيجارة محشوة ونومة هادئة بين أحضان هؤلاء الغرباء، طلعت يعمل منذ بداية النهار حتى آخره، ويجلس في المقهى عند غروب الشمس، وله عيون في شوارع وسط المدينة، وعند حدوث مشكلة يذهب إلى قسم البوليس ليضمن شخصية الخرتي، ويدفع له المصروفات اللازمة، ولكن إذا قبض على الخرتي ومعه مخدرات فإنه يذهب ومعه محام، حتى يقنع ضابط البوليس أنها تعاطي وليس اتجاراً. هو نفسه حذر "باسم" من نادية وقال له إنها صغيرة وستجلب له المشكلات، ولكن عندما تورط معها باسم حاول طلعت مساعدتها وأعطاها النقود اللازمة للعملية، ثم حجّم نشاطها في وسط البلد؛ خوفاً من تحولها إلى عاهرة وخاصة بعد صدمتها في حب "باسم". لم يكن يحترم "باسم" ويخشاه فقط لنفوذ

والده أو لمكانة زوج أخته في البوليس، ولكن لأن "باسم" كان له دراية كبيرة بوسط المدينة وكان يجلب زبائن كثيرة للبازار الذي يملكه طلعت. وكان يحصل على نسبته بدون مناقشة، وكان يطلق عليه اذكى وأخطر رجل في وسط البلد. وسيقول لك باسم أن تحترس منه فهو يهوي الجميل من الرجال مع أنه متزوج وله ثلاثة أولاد كلهم من الذكور. فتراه كثيراً يجلس وحيداً في مقهى المنظر الجميل بباب اللوق يدخن النرجيلة، فيلمحك من بعيد ويبتسم ويدعوك للجلوس وترد له التحية، ولكنك تهرب منه بعيداً متذكراً ملحوظة باسم عن سلوكه برغم ادعائك لاعتناق المذهب المتحرر في الحياة وأن تدع الناس يفعلون ما يحبون.

سيراك طلعت دائماً تمشى مع أصدقائك من الجامعة الأمريكية فلا يتحدث إليك ولا يضايقك، ولن يتحرش بالأجانب الذين يمشون معك في ميدان طلعت حرب، وسيعرف تماماً قدرتك، ولا يضايقك كما يفعل الهواة. وستستغرب لضخامته، وتتعجب كيف يحمل رأسه المتضخم فوق عنقه القصير، ولكن ستحب خفته وحركته الدائمة.

❖ ❖ ❖

سيرة ذاتية:

كان باسم الطفل الأول فى العائلة الصغيرة ومركز حياتها فوالدته درست علم نفس الطفل بجانب الموسيقى، وعرفت كيف تنمى ذوقه عن طريق العزف له وتدريبه على الغناء السليم وأيضاً اختارت له اللعب التى تنمى ذكاءه مثل المكعبات والميكانو، والكتب التى تطور من معرفته وعقله كطفل فقرأ مغامرات "سوبرمان" و"الرجل العنكبوت" ومجلات "سمير" وقصص "ليدى بيرد" وعندما جاءت أخته قل الاهتمام به، وزاد الهوس بالمحافظة عليه، ثم اختفى الاهتمام بعدما جاء الطفلان الثالث والرابع وكثرت التحكمات فيه، والإهمال له، وقل كلام والديه معه، وتركوا مسكنهم القديم بالمنيرة وذهبوا إلى منطقة جديدة تماماً عباس العقاد فترك أصدقاءه الحميمين فى المدرسة، وشعر بالوحدة والعزلة، وكثرت سفريات والده وعمل فى مهمات تفاوضية بين مصر وإسرائيل. أما أخته فانشغلت بخطيبها ضابط الشرطة الملتزم، وأصبح "باسم" يشعر بالغيرة منه؛ لأنها كانت قريبة منه جداً قبل أن ترتبط به، وخاصة عندما كان يتشاجر مع والدته التى كانت تهجره وتخاصمه بالأيام وتأمره أن يغلق باب حجرته لساعات دون أن يخرج منها، وكأنها سجانة فكان يبكى وحيداً ويدعو عليها ألا تحج بيت الله الحرام أبداً، ومع

ذلك أصبحت تحج كل عام وكأنها تتحدى دعواه. أخته كرست كل وقتها لهذا الخطيب الذى أصبح الضابط العاشق فأهملت أخاها وكاد "باسم" يجن؛ لأنه سقط من حساب الجميع، حتى جارته التى أحبها لم يستطع أن يستمر معها، فقد كانت محافظة لدرجة أنها لم تكن تسمح له بتقبيلها، وهو الذى كان محتاجاً لكل لمسة حنان واحتواء كامل من امرأة، كان نداء جسده وشهوته أقوى من أية معانٍ مثالية أو بريئة لصبى فى مثل سنه، حتى أدمن مشاهدة الأفلام الداعرة ومضاجعة الفتيات اللاتي تحررن من أغلال وقيود الدين والمجتمع. كانت والدته تطلب منه أن يمارس اليوجا، حتى يتحرر من سلطة الجسد كطريق للخلاص من الأفكار الدنيوية والدونية، وأن يدرب نفسه على التأمل لدرجة أنها كان كلما زارها أحد وخاصة من الأطفال كانت تعلمهم أصول اليوجا وتكافئ الطفل الذى يجلس صامتاً وغير متحرك لأطول فترة ممكنة. ولكن لم يعد يفيد التأمل مع جسد فائر، ورغبة جامحة وخاصة عندما تعرف على صديق كان يصاحب الأجانب وأقنعه أن لغته الإنجليزية لن تتقدم إن لم يخاطب أصحاب اللغة الأصليين فكثرت زيارته لوسط البلد وتحولت هواية الحديث مع الغرباء إلى الاحتراف، إلى أن تعرف على جاكى الأمريكية. كانت شقراء، ذات عيون زرقاء بلون

السماء ومياه المحيط الأطلنطي وفائرة، استأجرا شقة سوياً بالمنيل، وعشقته حتى الجنون، ورفضت أن تغادر القاهرة إلا وهو يحمل معها حقائبها إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

لم تكن صدمة للأب أن يصرح باسم بعلاقته بالفتاة الأمريكية فهذه ليست أول مرة يقابل فيها باسم أجانب، وهى فرصة مواتية أن يخرج من هذه البلد التى ضاقت بأصحابها وأصبح فيها الفرد عدداً زائداً ليس له أية قيمة مادية أو معنوية فالآلاف من الحرفيين أو المثقفين هاجروا إلى الخليج، ومعظم الوظائف الحكومية أصبحت مأوى للعاطلين وللمهمشين، إذن لماذا لا يذهب إلى أمريكا؟! وقد أصبحت مصر الحليف الأول لأمريكا فى الشرق الأوسط بعد معاهدة كامب ديفيد، وفرصة أن يبتعد فيها باسم عن جماعة الإخوان المسلمين الذين انضم إليهم فى غفلة من عائلته أثناء قضائه الصيف مع ابن عمته "أسامة" فى الإسكندرية، فبدلاً من أن يعود مرتدياً مايوه البحر، وحروق الشمس تظهر على وجهه وأكتافه، عاد باسم ملتحياً ومقصراً جلبابه حتى قبل ركبتيه بقليل، فأقسم أبوه بالطلاق على زوجته ألا يدخل أسامة منزلهم مطلقاً.

لم يفكر احد فى مصير هذا الشاب فى بلد كبير ومخيف مثل الولايات المتحدة، ترك كليته بدون أن يكمل دراسته، ونقوده فى حافظة هذه الزوجة الأجنبية، ترك مسرح كليته، وترك النوت الموسيقية التى تدرب من خلالها على بعض القطع الموسيقية، وخاصة لآلة الجيتار، وذهب إلى بلاد الصقيع وألوان البشر المتعددة.



ثم تحاول أن تساعده يا نادر فتقدمه لأصدقائك فى التليفزيون ليعمل مذيعاً لبرامج الأطفال فيفشل فشلاً ذريعاً لعدم استيقاظه مبكراً، ولنمط حياته الغربى، وملابسه الغريبة فهو يذهب لمبنى ماسبيرو بشورت وصندل مهترئ، وأيضاً لفشله فى الحصول على شهادة ليقدمها لشئون العاملين لكى يتسنى له كتابة عقد تشغيل وأيضاً استلام راتبه، وسيوهمك أن المذيعة المشهورة كبيرة السن تصادقه وتقربه منها، وأنها ربما تراوده عن نفسه، أو ربما تطمع فى الزواج منه خاصة أنه استرد عافيته وعاد إليه رونقه القديم.



"باسم لقد فقدنا الأمل فى إصلاحه "، هكذا سيقول أفراد العائلة عندما يجتمعون فى مناسبة من المناسبات، وسيقولون أيضاً إنه لا توجد فائدة منه وإن أباه هو السبب فيما آل إليه حاله، وخاصة بعدما ماتت أمه، ربما من حسرتها وربما من القهر، بعد نوبة نزيف نصحته أن يتمسك بالصلاة وبالقرآن فهما النجاة من هذه الحياة الفانية فتركته وحيداً. فيحترف الحزن عليها، ويذهب لصحارى الفيوم حيث يكمن مدفنها، يزورها ليلاً، يزرع شجرة التمر حنة التي اشترتها قبل موتها من معرض زهور الربيع بحديقة الأورمان بعدما حلمت بها، يبكى بجوار قبرها غير مكترث بأصوات المعذبين تحت الثرى، وأرواح الأطفال التى تحوم حول المقابر تجمع الهدايا، ولا بالجن الذى يبحث عن جسد ليسكنه ويقترن به.



وعندما يتودد "لمنار" رفيقة أخيك "ماجد" ثم يذهب معها إلى منزلها، ويدعى أنها ليست "شريفة" حيث سمحت له بتقبيلها، ولمس مناطق حساسة من جسدها، ويأتي ليحكى لأخيك هذه الحادثة فيكرهه أخوك ويطرده من حياته كصديق وأخ فى الرضاعة، وستواجه أنت

"منار"، وستقول لك أن "باسم" كاذب، وأنه لم يحدث شيء كهذا، وأنها كانت وحيدة بعدما نبذها أخوك نظراً لزواجها من مهندس، وسجن لتورطه فى السطو على متاجر الذهب فى منطقة عين شمس، فأصبحت متهمة بالتواطؤ، ووحيدة وأم لطفلة تسأل عن أبيها فكانت فى حاجة أن يسمعها أحد، ويشعرها بأنها ليست منبوذة من الجميع لارتدائها الخمار، وكذلك نظرة الشك من المجتمع بأنها وراء هذه السرقات.

وستسأل نفسك ما سبب جاذبية باسم للنساء؟ وأين يكمن سحره وجاذبيته؟ وهل هناك أشياء تشغله فى الحياة غير النوم بجوار امرأة؟

سيقول لك "باسم" إنه غير قادر على العيش بدون امرأة، وإن من دخل متاهة امرأة لا يستطيع الخروج منها فهى الروح، وأن النساء المصريات لم يعدن يصلحن له، فهن أكثر مادية من المرأة الغربية، فهى تريد بيتاً وأولاداً وسلطة، والحب والرجل هما وسيلتان للحصول على ما تريد، وانه أصبح لا يفهم العقلية المصرية المستغلة.

سيتصل باسم بنادر لحظة انفجار البرجين العالميين بنيويورك، ويقول إنها ليست شماتة في "الأمريكان"، ولكن العناية الإلهية قد أخذت له بالثأر من الذين أهانوه وقهروه بدون ذنب، وهو الذي كان ذاهبا إليهم

يحمل المحبة البريئة، والافتتان المبهور لشعب سيطر على العالم، وصعد القمر، هو نفسه حلم يوماً ما أن يطور صاروخاً يحط به على الكواكب الأخرى بأجر زهيد ليتاح للعالم رؤية عجائب الكون وقدرة الخالق، هو الذي انبهر بناطحات السحاب، والقطارات السريعة والشوارع النظيفة، اختلاف ألوان البشر ولغتهم وكأن برج بابل انهار في الولايات المتحدة، الحرية غير المشروطة، الأقليات، وأحيائهم، قارات من البشر باختلاف ثقافتهم وعرقيتهم في دولة واحدة.

وسيتحدث عن الدخان الكثيف الذي نتج عن الانفجار، وقال إنه يشبه الانفجار النووي الذي حدث بعدما ألقت الولايات المتحدة بالقنبلة الهيدروجينية على ناجازاكي وهيروشيما أيام الحرب العالمية الثانية، وأن هذا الدخان ليس نتيجة لاحتراق خزان البنزين للطائرات المهاجمة بل قنابل ذرية. وسيقول لك إنها الطامة الكبرى لحظة انهيار البرجين على أرض الأحلام، وتحاول أن تخبره أنك رأيت هذا المنظر على شاشة الجزيرة وعلى القناة الأولى، ورأيت كيف يهرول البشر مذعورين، وكأنه يوم الحشر العظيم.

وسيقول إن "بن لادن" هذا هو صلاح الدين الأيوبي الذي هزم الصليبيين، وأنه سيقرأ كثيراً عن هذا الرجل وعن طالبان، "هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم قوةٍ وبطشاً"، وأن العرب لو اتحدوا لأسقطوا هذه الدولة المتعجرفة، وستسقط جاكي للأبد، وربما تعود كسبية من السبايا التي يأسرها المسلمون الجدد، وأنه آن الأوان لقتل التهميش الذي يعاني منه العرب في العالم على أنهم أمة "جمال ورمال، وزيت وعقال"، وستقول له إنه لا يجب أن يتفاءل كثيراً فمن يدري ماذا تخبئ لنا الأيام من الولايات المتحدة، فيضحك ويقول لك لن تؤذينا يوماً ما فنحن الحلفاء الأوائل في الشرق الأوسط، نعم من الممكن أن تؤذي سوريا، أو ليبيا أو حتى السعودية، أما العراق فهي البقرة السمينة التي تحلب براميل من النفط، وتطعم بها أطفال أمريكا.

ويتمهل نادر في الحكم على الأمور وسيجلس بالساعات يشاهد القنوات الفضائية وخاصة الجزيرة، وسيرى وجه "بن لادن" كثيراً يهدد الولايات المتحدة بالإبادة، وسيحلم نادر بالمليون دولار مكافأة إن قبض عليه وسلمه "للأمريكان"، وأمريكا لن تترك ثأرها، وسيتذكر حادثة سجن باسم من أجل بضعة دولارات زهيدة، وسيتوقف عن الكتابة لوقت طويل ولا يفعل شيئاً سوى مشاهدة التليفزيون، ونشرات الأخبار

ويشعر بصداع شديد، وثقل في عيناه عندما يستيقظ من النوم، وسيفقد رغبته في الحياة، وستقل مرات ضحكه حتى تتلاشي. وسيقول اللحظة الراهنة بأحداثها غير العقلانية أقوى من أي كتابة، ولا يستطيع أي خيال أديب تصويرها. وينصحه بعض الأصدقاء أن يبتعد عن السياسة، وأن يكتب ما يحلو له، ولكنه لا يستطيع، وستضيع منه ساعات وساعات، يشاهد مناظر العنف والموت والدماء، ويتضاءل إيمانه بالخير الموجود في البشر، ويؤمن أن العنف هو الدين الذي يعتنقه العالم الآن..



دائما ما تشاهد "باسم" يمشى بجوار "مول البستان "، يدخل إلى مقهى الإنترنت يجلس بالساعات ليتحدث مع جودى التى ترسل له صورة لطفلة اسمها "أستر" كان يريد أن يسميها "سالومى"، وستراه أيضا يمشى مع فتيان أصغر منه سناً، وعندما تسأله من هؤلاء يقول جدعان وأصدقاء المهنة، ودائماً ما سيدعوك لتذهب معه في رحلة إلى شرم الشيخ؛ لأن هناك العالم الجديد، والرئيس له استراحة كبيرة هناك، وأن غسيل الأموال والتطبيع مع إسرائيل أصبح الاستثمار الرابح فى هذه البلدة للخروج من الأزمة، وسيكتشف "باسم" أن لوالده قطعة أرض على حدود

طابا قد أعطيت له مكافأة؛ بسبب لا يعلمه باسم وأن والده يضن عليه بها، وباعها ليتزوج فتاة ريفية بعد وفاة والدته؛ ليضمن بقاءها وولاءها. وسيعود حتما من شرم الشيخ ليقول إنه تعلم فن تدريس الغطس، وإنها مهنة مريحة جداً حيث الدفع هناك بالدولار، وسيدعوك للعشاء ويشتكي بخل أبيه وحبه الزائد لزوجته المسكينة،" نعمة"، التى ارتضت مرغمة بسبب الفقر والحاجة أن تتزوج رجلاً فى مثل عمر أبيها، وسيقول إن والده يصر على أن يسترد مبلغ الكفالة التى دفعها له عندما كان مسجوناً فى بوسطن، وسيطلب بعض النقود ليشترى طعاماً للأرانب وبنزيناً للسيارة، وبعض العشاء، وستضطر راضياً أن تفعل ذلك؛ لأنه قريبك وأكرمك عندما زرته فى بوسطن. سيتجنب والد باسم التعامل معه كثيراً، وسيغلق بابه فى وجهه وسيقول له إنه يجب عليه الاعتماد على نفسه، وأنه لا يستطيع أن يطعم رجلاً ناضجاً اقترب من الأربعين، وأنه لديه أشياء أخرى يفعلها فى حياته، وأنه أنفق عليه الكثير منذ أن كان طفلاً صغيراً حتى أخرجه من سجن أمريكا، وحتى بعد ما جاء إلى القاهرة. وأنه يريد أن يعيش فى هدوء مع زوجته الجديدة، ولا يصح لباسم أن يعيش معهم فى المنزل نفسه بعدما هدده أنه سيضاجعها يوماً ما لو تزوجها واغتال ذكرى والدته، وأن الحياة السياسية مضطربة هذه

الأيام وأنه عليه أن يركز فى عمله وإلا فسيفقده، فهناك فكر جديد سائد فى المنطقة، وخاصة لإعداد الدولة للرئيس القادم، وأن المنطقة ملتهبة وتحتاج منه إلى يقظة، حيث إن أمريكا قد زرعت شوكتها فى الشرق الأوسط بعد غزوها للعراق وإسقاطها حكم صدام، وأن حركة الجهاد الإسلامى وإرهابها المنظم محتاجة إلى تركيز من المخابرات المصرية لتعرف خططها، وخاصة بعدما طلبت الولايات المتحدة من مصر التعاون الكامل فى هذا المجال بعد ١١ سبتمبر. سيصرخ فيه باسم قائلاً إنّ الكلب يطعم أولاده، والنمور تطعم صغارها، وأنه ليس من الأبوة في شيء، وأنه يفتقد والدته كثيراً وأن هذه الصغيرة المدللة لا تصلح إلا ابنة له، وليست زوجة، وأنه سبب وفاة والدته نتيجة لغيرتها الشديدة من سلوكه وعلاقاته المشبوهة مع نساء ساقطات، وأنه تحالف مع الشيطان والدولة الديكتاتورية، وأنه يحتقره؛ لأنه يتعامل مع الدولة التى تدعى الخير، وهى أساس الشر والحقد فى العالم، وأنه لن يغفر لهؤلاء فارغي العقول ؛ لأنهم السبب فى ضياع مستقبله وهوانه على نفسه وعلى الناس، وأن النظام العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة أكذوبة كبيرة لا تصدقها دول الغرب المتقدم أما الدول الضعيفة هى التى

تخضع للتهديد، وتستجيب للأوامر بغض النظر عن مصلحة شعوبها أو كرامتها.

وستدّعى أنت مبدأ التسامح وتقول له إن في الولايات المتحدة والغرب بشراً طيبين وأنهم لا يستحقون كل هذا الحنق منه، وستقول لهم إن كل البشر ليسوا هم الكونجرس الأمريكي والاتحاد الأوربي فقط، وأنه من يضع السياسة بعض الأفراد الذين يعملون نتيجة لخطة محكمة تشبه الماسونية تريد بها السيطرة والتوازن الدولي، وأن الشعب الأمريكي لا حول له ولا قوة، تماماً مثلنا نحن العرب، يلهثون وراء لقمة العيش والحياة الهادئة، فيعارضك ويقول إن هذا الكلام هراء، ففي الولايات المتحدة نسبة التعليم مرتفعة جداً، وليس من الممكن الضحك على الشعوب كما يحدث في هذا المجتمع نصف الأمي. فتقول له إنه يجب أن يتذكر ابتسامة الأطفال والشيوخ في وجهه، أو اللحظات الإنسانية من البشر العاديين في تعاملهم اليومي كأن يدعوك أحد منهم لتناول كوب من الشاي أو الغداء، أو السؤال عن مزاجك إن كنت متضايقاً، أو عندما تدخل مكتبة فيساعدك أمين المكتبة في الحصول على كتاب أو يتركك تتجول براحتك دون أن يضايقك، أو وقوف أحد المواطنين معك فى مدخل المترو؛ لينظر في الخريطة ليصف لك الطريق وأنت تائه، أو أحد

يقلك بسيارته عندما تفشل في الحصول على حافلة لتصل بها إلى غايتك. هؤلاء هم البشر، هذه هي الذكريات التي تجلبها معك من الغربة، وليس الشر فقط؛ لأن الشر موجود في وطنك أيضاً. عندما سمع هذه الكلمات تضايق حتى كاد يبكي، وتركني ألوم نفسي، وأتذكر حالي، وماذا فعلت في بوسطن عندما كنت في زيارته.



وستقول له إنه يجب أن يبدأ من جديد، وأن الحياة لما تنته، وأن الفشل جزء من الوجود وأن له مواهب كثيرة يجب أن يستغلها، ولما لا يبدأ بالغناء فهناك برامج كثيرة تهتم الآن بالموهوبين، مثل "ستار أكاديمى"، و"ستوديو الفن"، وهناك إنتاج خاص للأغاني فلماذا لا يبيع السيارة وينتج أغنية يُسّوقها بنفسه للمحطات الفضائية الخاصة ؟ وإنك متأكد تماماً أنه سينجح نظراً لصوته الجميل ووسامته، فيحلم ويبدأ بالغناء، ثم يكتئب ثانية، ثم يأتى إليك ويفاجئك بأنه يريد التمثيل، وأنه الآن تربطه صداقة بفتاة تدعي "نهى" طالبة بمعهد السينما تدرس كتابة السيناريو، وهى مفتونة به، وترى أن حياته تصلح لأن تكون فيلماً روائياً طويلاً يجب أن يشاهده الشباب، وأنها مفتونة

بالعالم والجو الذى يعيشه وبالشقة المتواضعة التي يسكن فيها، وأن منظر الصحراء الواسعة التى تحيط بمنزله هى الجنة بالنسبة لها. فتبدأ فى كتابة المناظر الأولى للفيلم وما حدث له فى السجن، ويساعدها هو فى كتابة الحوار، وأخذته موديل لفيلم قصير لمعهد السينما حتى تقنعه بما تفعل، وكان عن قصة قصيرة لماركيز، وبعد فترة غير طويلة من علاقتهما أصبحت تجئ إليه فى منتصف الليل، وتقول إنها تشاجرت مع والدتها بسبب معاملتها السيئة لوالدها الذى يترك البيت لأيام عديدة؛ لأنه لا يزال يفكر في العالم وكأنه اشتراكي قديم فيحضر ندوات حزب التجمع"، ويجلس على المقاهي بالساعات ويكتب مقالات شجب في الحكومة في صحف المعارضة مثل جريدة "العربي الناصري"، وأيضاً الصحف غير المقروءة ولا يتقاضى عنها أجراً، ويعتصم ويصوم عن الطعام في كل مناسبة يتظاهر فيها الطلبة أو الشعب ضد إسرائيل أو أمريكا، وقد كاد يموت جوعاً عندما اعتصم في "نقابة المحامين" عندما قررت أمريكا غزو العراق، ويفتخر أن "حمدين صباحي" كان رفيقه في هذا الاعتصام، خرج "صباحي" بطلاً وأفرج عن والدها ليدخل المستشفى يعاني الجفاف لشهور عديدة. هي التي أنقذت كتبه التي يحتفظ بها من سنوات مثل "رأس المال" لماركس "والبيان

الشيوعي" للينين وبعض كتابات جارودي ومذكرات محمد الجندي الخاصة "بحدوتة" -من الاحتراق عندما تشاجرت والدتها مع أبيها يوماً ما، وأضرمت في مكتبته النار، حتى أحضرتها " نهى" إلى منزل "باسم" والتي قرأها جميعاً من الغلاف إلى الغلاف، ولكنه ظل يقول لنهى إن الدولار وليست الروبية هو الذي يحكم العالم الآن، وأن مفهوم العدالة الاجتماعية وإزالة الفروق بين الطبقات وحقوق العمال والموضوعات الاقتصادية مثل العلاقة بين القيمة الحقيقية للشيء وفائض القيمة هي أفكار بعيدة تماماً عن الرجل العادي المقهور في عالم تحكمه حركة العولمة الغائب عنها المضمون.

قالت وهي تبكي فوق صدره في إحدى الليالي وتنظر شاردة في الضوء الضعيف المنبعث من المصباح إن والدتها تتعامل معها على أنها عاهرة، وفتاة ليل بسبب أسلوب حياتها المتحرر برغم أنها هي التي شجعتها على الالتحاق بمعهد السينما؛ لأنها فشلت أن تصبح هي نفسها ممثلة، أو حتى كاتبة، وكثيراً ما تمنعها من الخروج؛ وذلك بأن تضع ملابسها فى المياه بحجة أنها ستغسلها فتضطر ان ترتدى معطفاً شتوياً لا تغيره لأيام عديدة ترتدي تحته ملابس خفيفة جداً فى الشتاء، وأنها كثيراً ما تكره أمها، وتتمنى الا توجد فى الحياة، وأنه لولا أخواتها الصغار لرحلت

إلى أى مكان، وأنها لا تؤمن كثيراً بأن الجنة تحت أقدام الأمهات، بل أحياناً الجحيم، وهى التى علمتها أن تقترض من أصدقائها لدرجة الاستغلال، ولولا وجهها الخجول وبراءتها الفطرية لعاملها البشر بقسوة أكبر، وأنها أحيانا تشعر بالمهانة لوجود والدتها فى الحياة وتستغرب لماذا ارتبط والدها الرجل البسيط بهذه المرأة القاسية التى لا يهمها إن كانت ابنتها سعيدة فى الحياة أم لا ؟

ستقول إن والدتها هي أيضاً عاشت طفولة بائسة؛ فهي لم تعرف حنان الأب أبداً، وهربت مع أول رجل طلبها للزواج وأنها بعد ليلة الزفاف قررت أن تنتقم من كل الرجال الذين هم من جنس أبيها. وأنها أصبحت لا تفرق بين أبنائها والرجال، فتفننت في تعذيبنا وتعذيبهم. وتقول إن شمس الحب غربت في بيتهم منذ زمن، وإنها لم تر أمها تقبل أباها مطلقاً وكأنه محرم عليها أو أجنبي عنها. وأنها تستغرب كيف جاءت إلى الدنيا لو كان هذا هو سلوكهما في الفراش، وفى الحياة؟ وأن هذا السلوك من جانب والدتها جعلها مستهترة بالحياة وبكل شيء، وأصبحت ترغب في إيذاء نفسها لكي تنتقم منها. وأحيانا أخرى كانت تريد أن تعود لصلب أبيها تسبح فيه بدون ماهية غير رمز"X"، جين وراثى لا يحمل أية صفات، فى حالة من العدم الأزلي، ولم ينفخ فيه من روح الرب.

وفي لحظات أخرى كانت تشعر أنها تريد أن تدخل رحم أمها مرة ثانية لتهرب من هذا العالم القاسي، وتتخيل أن أمها ستستعيدها وتعوضها عن الحنان المفقود. قال لها باسم إنها تعاني عقدة إلكترا وإنها يجب أن تتخلص من هذا الشعور وإلا جنت.

كانت تدرك أن والدتها غير سعيدة فهي التي تنفق على المنزل بينما الأب يبحث عن العدالة الاجتماعية خارجه، ويهمل عمله. فأصبحت نهى حائرة لا تدرى ماذا تفعل، حتى قابلت "باسم" في مقهى الحرية، فطلب لها قهوة، ثم شاركته زجاجة البيرة الوحيدة التي استطاع أن يدفع ثمنها ثم دعاها لمنزله فذهبت. قالت له إن مقهى الحرية هو ملتقي معظم الذين يبحثون عن فرصة يتحققون بها سواء في الفن أو الحياة. وأن فرصتها قد واتتها عندما تعرفت به.

وسيقول لك إن فرصتها في النجاح ضئيلة، فهي ليس لها من يساندها في هذا المجال، فالموهبة وحدها لا تكفي، وهى خجولة وغير قادرة على الابتذال فهي لا تستطيع أن تعطي نفسها لرجل بدون حب، وإن الحب لديها ليس فقط علاقة جسد يتخلص الجسم من سوائله المكبوتة بل هي رحلة وجودية، وإن محبتها خالصة ومكثفة، وإنها تكره الخيانة

كرهها للكفر. وإن الغيرة مرضها الذي لن تبرأ منه، وحذرت "باسم" من أنها ربما تقتله لو عرف امرأة أخرى غيرها.



جاءت نهى وقالت: عبد الحليم مين اللي بتسمعه سيبك من فنانين السلطة فهم دائماً فى المقدمة ولا يقولون شيئاً مهماً " ثم فتحت حقيبتها وأخرجت شريط كاسيت، ثم قالت: "مفاجأة " ثم مالت لتضع الشريط فى جهاز الإستريو، رآها باسم من الخلف واشتهاها، ثم قالت بفرحة "الشيخ إمام": غناء وقضايا، متعة وثورة، سرقت هذا الشريط من أمي كانت صديقة لأحمد فؤاد نجم، وكانت تذهب معه إلى "حوش آدم" وضبطها والدى هناك مرة ترقد على الحصيرة وفى حالة النشوة والخمول وكأنها تعاطت الأفيون وبجوارها رجل يقبل رقبتها فاستشاط غيظا وشج رأسها بكوب الشاى". كان باسم يسمعها بدون اهتمام وكان مشغولاً بمحاولة استيعاب ما ينشده الشيخ إمام مثل أغنية "شورم بورم" وهى عن توغل الصهاينة فى الشرق الأوسط، تهكمه من زبيبة الصلاة في جبهة الرئيس السادات وثقافته فى أنشودة "أهو" واللعب على الحبل فى "عجين الفلاحة". سمع الشريط حتى النهاية. كانت سعيدة وكأنها

أعطته كنزاً، وانتظرت تأثير هذا المغنى الثوري فيه، ولكنه لم يعرها اهتماماً كبيراً، وقال: فترة وعدت، محتاجين حد يكلمنا عن الحاضر، لماذا نعشق الماضي ونصنع من الموتى عمالقة؟ أشعلت نهى سيجارة واتكأت بجانبه ثم فردت ساقيها، ومالت برأسها على كتفه ثم جرى ريقها وشعرت بسخونة وجنتيها، ومالت على شفتيه تقبلهما برقة فأخذ شفتيها بين شفتيه. ثم همست بعد أن أفاقت وقالت: " أحبك، أنت الذى أحتاجه فى هذا العالم "، فضمها إلى صدره بقوة وهو مغمض العينين وقال بهمس: "وأنا أحتاجك أيضاً، وأحتاج العالم كله بجانبى ".



ستقول نهى: نفسى أذهب إلى مطعم تشيزا معاً نأكل الجاتوه، ونشرب الكابتشينو، ونسمع الموسيقى الخفيفة، وخاصة فى أحد نُهُر الصيف حيث يكون الجو حاراً وخانقاً، والأمن المركزى بالخارج يحرس البنك الأهلى والمعبد اليهودى نجلس فى جو بارد بفعل مكيف الهواء، نجلس بالساعات ونتحدث فى تفاصيل الحياة والفيلم. قالت: دائما ما يجلس هناك مخرج معروف يدرس لى فى المعهد، ولكنه لا يدعونى للجلوس معه مع إن إحدى صديقاتى قالت إنه حيموت ويتعرف بيه وقال

لها إننى سأكون ممثلة إغراء، تصور ! مع أن أصدقائي يقولون إننى لا أنفع إلا لأدوار البراءة تماماً مثل فاتن حمامة قبل دورها فى فيلم "لا أنام". ثم أضافت لا أصلح أن أكون ممثلة؛ لأنني أخشى مواجهة الناس ويظهر ذلك عندما أدخل مقاهى وسط البلد فأرتبك وتتعثر خطاي، وكأنني طفلة تتعلم الحبو حديثاً، أو كأني كنت مريضة لشهور طويلة، أشعر بعيون الرجال والنساء تتفحصني وكأنها أشعة إكس تخترق عظامي فأرتدي قناع اللامبالاة، وأقصد الطاولة التي أريدها، ولا ألتفت إلي أحد، أعلم أن جسمي ليس جميلاً فأنا ممتلئة أكثر من اللازم، ولولا بياض بشرتي لما أحبني الرجال، العرب يحبون المرأة البيضاء والبضة ولكني سأقوم بحمية قاسية لإنقاص وزني، سأجرب حمية التفاح والعسل ثم تحسرت؛ لأن التفاح غالٍ هذه الأيام، ولكني سأحاول، وأن لم تفلح الحمية سأجرب شفط الدهون، وخاصة عند منطقة الأرداف، أريد أن أرتدي الجينز بحرية وملابس سهرة بدون أن أبدو كالغوازي وبنات الليل. ثم قالت أحب مقهى الحرية عندما يملؤه النهار ما بين الظهر والعصر حيث يكون هادئاً ونظيفاً وتتوغل الشمس فيه بحنان فأشرب القهوة، وأقرأ قليلاً أو أكتب منظراً في فيلمي الجديد وأشاهد المشاة من

وراء الزجاج دون أن يلاحظوني، جميل أن تتلصص علي الناس دون أن يشعروا أنهم مراقبون... أن تشعر أنك إنسان مراقب فهذه هي الإهانة.

أمي تفعل ذلك دائماً، تراقبني وتتفحص حفاضاتي، وتتعمد أن تنظر إلي حلمة صدري وتتحقق من لونهما خوفاً من مفاجأة أن أجئ لها يوماً وأقول لها إنني حامل.

قال باسم وكأنه مذيع إعلانات: ماهى نوع الحفاضات التى تستخدمينها.. أهي ذات أجنحة؟ فردت وهى تلكزه فى كتفه: نعم يا قليل الأدب ؟ فقال دعينا نطير سويا! واحتضنها وهما يضحكان. بعد فترة قال باسم: ألا تشعرين بالضجر من حياة التيه بين المقاهى هذه ألا تحلمين بالاستقرار كأية امرأة مصرية: منزل وبيت وأطفال ؟ قالت: كل هذا تغير لم يعد هناك طموح الفتاة الآن لقد تغير كل شيء لم تعد الحبيبة فقط ولكنها المنافسة له ومع ذلك فهى تريد المال والعاشق والزوج ثم أضافت وهى تقترب منه أكثر وقالت طموحى ليس الثروة والغنى، بل الفن الذى هو الخلود وأعرف أنك ستخلدنى بحياتك وحبك، ثم بكت بحرقة وكأنها فقدت عزيزاً عليها.

❖ ❖ ❖

وسيقول "باسم" إن نهى كانت تتشابه معه فى أشياء كثيرة وأنها ذكية جداً وإحساسها عال وطيبة جداً مثل الجدات الحانيات وأن الظروف لا تخدم أمثالها كثيراً وسيقول إنها كانت ستقدمه لداود عبد السيد أو خالد يوسف أو هانى خليفة ليصنعوا منه نجماً وأن الحياة ظلمتها كما ظلمته.

وسيقول إنه لم يعرف جيفارا وفيدر كاسترو إلا عن طريقها برغم صورهما المنتشرة في بوسطن كرمزين للاستقلال والدفاع عن حقوق الشعوب التي تقهرها أمريكا وخاصة فيتنام وكوبا، وأنها أهدته تي شيرت عليه صورة لجيفارا كانت حديث وسط البلد لأسبوع وأنه يفكر أن يطبع صورة جيفارا على أحد جدران حجرته، ليذكره أنه كان كبش فداء مثله تماما. وأنه يعلم تمام العلم أنه سيموت شهيداً أو مقتولاً. نعم هو لا يحارب أي نوع من الفساد في السياسة أو المجتمع ولكنه شهيد هذه الحياة التي تظلم بأقدارها كثيراً من الأبرياء تماماً مثل الدول الديكتاتورية التي تقتل بجبروتها حرية الدول الصغيرة في أن تعيش كيفما يحلو لها. وستخبره أنه ضحية النساء والمزاج، ولكننا لنا أهواؤنا، إذن كلنا شهداء. ويبدأ في رسم صورة لجيفارا فتنصحه أن يبتاع الصورة

المطبوعة فهي موجودة في كل مكان، ولا يصدق نفسه أنه أصبح كالرسام دافنشي ؛ لأنه لا يزال في بداية حياته.

وسيأتي بعد عدة أيام ويهديك صورة أخرى نادرة لجيفارا وهو يخطب في شعب كوبا ليحارب الظلم عن طريق حرب العصابات، وسيقول هذه هدية عيد ميلادك، فتقول له لقد مات جيفارا يوم ولدت تقريباً.

ثم يتحسر باسم ويقول إن علاقته "بنهى" لم تدم طويلاً وأنه لم يخسرها فقط بسبب "نادية" الفتاة الجريئة التى أصبحت تهدده بالفضيحة ويمقاضاته بقضية النسب عن طريق تحليل الحامض النووي للجنين الذي تحمله في رحمها وتدعى أنه منه، بل لتطفلها عليه فى أوقات كثيرة على منزله بدون استئذان وغيرتها من الأجنبيات، حتى إنها قرعت الباب مرات عديدة حتى استيقظ الجيران وهددته إن لم يفتح لها الباب ستلقى بنفسها من سطح البناية لتدخله السجن، وتشعره بالحسرة والندم طيلة حياته، فعرف أنها مجنونة وغير مستقرة المزاج، وهذا النوع من النساء خطر حتى ولو كن مبدعات؛ لأن فكرة الانتحار دائماً ما تسكن عقولهن وتعبق أرواحهن كالعطور، وأنها أيضاً لم تكن

نظيفة بما يكفى فقد كانت تترك ملابسها الداخلية على حوض الاغتسال، وانها لم تكن تحترم قداسة الدورة الشهرية وكأنها تريد أن تضره، ولم تكن تكتفى بالتقبيل مع أنها لا تزال عذراء، وكان يخشى التمادي معها، وشك أنها "برانويا"، وانها لن تصنع فيلماً، وأنها تعاني عقدة الأب؛ حيث إنه رآها أكثر من مرة تُجالس الرجال الشيوخ في المطاعم المنتشرة بوسط البلد، مثل الجريون واستوريل، والمرة التي طردها من منزله إلى الأبد عندما خرج من الحمام ووجدها تخنق الأرانب التى اشترتها جودى لتؤنس وحدته أثناء سفرها لكندا، وانها تعمدت أن تلطخ اللوحات التشكيلية التى رسمتها "أوفليا" الفتاة النمسوية التى استضافها "باسم" فى منزله لمدة شهر حيث استأجرت حجرة من شقته وأصبحت مفتونة بالمكان لدرجة أنها رسمت لوحات كثيرة عن الطبيعة، وأيضاً أشكالاً تجريدية مستخدمة اللون الأزرق بدرجاته مختلطاً مع اللون الأصفر، وعندما فعلت ذلك طرد "باسم" "نهى" من حياته إلى الأبد، ولم تكتب ولم تخرج فيلما حتى اليوم.



تذكرت أنك في ليلة خطوبتك دعوت "باسم" أن يبيت في منزلكم حيث تركه أبوه بجوار بحيرة قارون الواسعة حيث كنت تقيم حفلة كبيرة تحتفل بها بحصولك على المرأة التي أحببتها من أول نظرة وقلت مثل ما يقال في الأغاني هي التي ستسعدني في حياتي. كانت تشبه حبيبتك القديمة التي تركتك وتزوجت شخصا آخر لم تستطع أن تكرهه لأنه صديقك، ونجحت بدون قصد أن تكون ملهمتك عندما فشلت أن تكون شريكة لحياتك، فأصبحت ملهمة الإحباط والرثاء النفسي وتستدعيها دائماً في كل كتاباتك فأردت "بحسناء"، أن تنسى حباً دام أكثر من عشر سنوات، ولا تستطيع أن تخرجه من داخلك، وعندما قابلت "حسناء" أصبحت مفتوناً بها غير قادر على الابتعاد عنها، وبعد أسابيع قليلة أصبحت هي كل النساء، وكل البشر، وكل الحواديت.

دعوت "باسم" فجاء، لمحته من وسط المعازيم يرتدي بدلة لا تناسب عمره ولا نحافته، ويبدو الإرهاق عليه، ثم تركت الجميع، واحتفلت أنت معها على شاطئ البحيرة تضمها إلى قلبك وتضمك، وكأنها تريد أن تحقن نفسها بك فتسري في شرايينها، تضمها وتبعدها في نشوة لم تتذوقها من قبل، وتشعر هي بذلك فتزيدك منها، وترقصان على إيقاع

أمواج البحيرة الهادئة التي تحضن الشاطئ والرمال برقة وحنان، وتنظر إلى البحيرة فكأنه حلم بلون فستان زفافها الوردي. وتلمس شفتاها فكأنك تنهل من أنهار عسل الجنة ورحيقها.

عندما تعود إلى المنزل تجد "باسم" يجالس ابنة أخيك " زهرة " التي ودعت المراهقة جسداً فقط وظهر عليها الارتباك عندما فتحت الباب، ولم يكن أحد في الردهة غيرهما، وأمك نائمة وأخوك ماجد ذهب إلى الحانة ليشرب لينسى أنك ألقيت بنفسك في حضن عائلة غير جديرة بموهبتك ولا بمكانتك الاجتماعية، وأن الفتاة الريفية استطاعت أن تلفك بحبل الغريزة الجائعة لديك، فتنظر لباسم شذراً وتأمر زهرة أن تدخل لتنام فيدعى أنهما سهرا يشاهدان التليفزيون ليس إلا، فتشك في مقولته وتتخيل أن ما فعله بنادية قد فعله بزهرة فتغضب، وتثور، وتطرده من منزلك في الصباح الباكر وتراه يمشي أمام منزلكم وحيداً، وتعلم تماماً أنه سيمشي حتى مدينة نصر لعدم وجود نقود معه، فتندم أنك كنت بهذه القسوة، وتريد أن تناديه، وتتطلب منه الصعود، بعد دقائق ترى زهرة ترتدي ملابسها وتقول إنها لديها محاضرات في الجامعة ويجب أن تذهب. وتتشاجران، فتقول لك إنك موسوس وشكاك، وتقريباً تضربها وتنظر من الشرفة فتراها تسير في الاتجاه المعاكس ولكن

تتخيلهما يمشيان سوياً في شوارع المعادي الهادئة المشجرة تتعانق يداهما وروحاهما.

❖ ❖ ❖

ولن يعبأ باسم بنادر مطلقاً، ولن يسأل نفسه إن كانت المرأة التى ارتبط بها نادر مؤخراً تسعده أم لا ؟ وهل هناك قناعات بوجودها فى حياته ؟ ولن يكل باسم فى الحديث عن نفسه ولن يمل نادر من ملاحظته والاستماع إليه، حياة نادر أيضاً تتدهور وتقترب علاقته بزوجته من الهاوية، ربما حبه للكتابة أصبح شغله الشاغل، أو ربما أصبح العالم المتخيل أجمل بكثير من العالم الحقيقى، حتى بات هو أيضاً مفصولاً وغير سعيد بحياته حتى مع أقرب الأقربين إليه، وسيأكله الملل ويصاب بالتوتر وربما العصاب، وسيتشاجر كثيراً مع زوجته وسيفكر كثيراً في الانفصال عنها ؛ لأنها تعيش، ولا تدرك كم هو يعاني، وسيشعر بأنها لا يشغلها غير إحساسها بذاتها واحتياجاتها من حب واحتواء غير مدركة لروح نادر الحساسة، فيخرج للشارع كثيراً، ويصادف عدداً كبيراً من البشر ويرمي بنفسه لتجارب كان كثيراً من الوقت يخاف منها ويمنع نفسه عنها، وسيتجرأ على الناس بالكلام والفعل، ويجرب كل أنماط

الحياة، وسيمشي كثيراً في الشوارع ينظر في وجوه المارة، وإلى الباعة الجائلين، وسيحملق بشكل مريب في مداخل المباني القديمة ويتأمل شكل العمارة في جدرانها ويتمنى دخولها، وخاصة المظلمة منها وسيطرق أبواب البوابين ليتحدث معهم، وسيصادق كل من يجلس بجواره في الميكروباص أو المترو، وسيعطي رقم هاتفه لأكبر عدد من النساء والرجال، وسيوهمهم أنه يريد أن يصادقهم حتى الدرجات الحميمة من العلاقات، وعندما يتصلون ويتصلن به فلن يرد على الهاتف وإن رآهم مرة ثانية في الشارع لن يتذكرهم، ولن يتحدث إليهم وسيتركهم في ذهولهم، وسيدعي أنه باسم وهو نادر.



سيقدمك "باسم" لبعض أصدقائه من الخرتية، ويقول لك إنهم عالم بأكمله، وإن وراء كل واحد منهم عالماً مثيراً وسحرياً، فتقول له هل رأيت فيلم "رومانتيكا"، فيعجبه الاسم. وبعد أن يعرفك على صديقه "صلاح" ويقول لك " إنه أجدع واحد في وسط البلد"، وإن أباه أهم مروجي ورق البردي الأصلي، وليس ورق الموز، ويلح أن تزور المعرض الخاص به في شارع طلعت حرب فتدخل العمارة وكأنك تدخل حجرة

الملك بالهرم الأكبر: سرداب طويل يقودك إلى بدروم به حجرة صغيرة عليها لوحات لرسومات فرعونية متعددة الأشكال والألوان، وكأنها من صنع الفراعنة أنفسهم، فيحكي أبو صلاح عن حبه لهذه المهنة، وعن أسرارها، وكيفية التعرف على الأصلي من أوراق البردى والمزيف منها، ثم بعدما يطمئن إليك وينظر إلى عينيك كثيراً ومن حين لآخر يلمس يديك الدافئتين ويظهر اهتماماً شديداً بك ويهمس بأنفاسه التي تملؤها رائحة القهوة والأفيون أن لديه أوراق بردى يعود عمرها إلى خمسة آلاف سنة خاصة بالوصايا الموجودة في "كتاب الموتى" وأنه سرقها أثناء عمله في الأنتيكخانة في الخمسينيات أثناء التنقيب عن مقابر الملك خوفو بمنطقة نزلة السمان، وأنه فصل من عمله بسبب سرقة هذه الأوراق، وكاد يسجن لولا أنه هربها عند أقارب له في منطقة "الفلاقة" بدمنهور البحيرة، وأن كثيراً من رؤساء العالم ووزراء الثقافة أصدقاؤه ويزورونه كلما سنحت الفرصة بذلك، وستخبر" أبو صلاح " عن سائق التاكسي الذي عرض عليك تمثال نفرتاري ليبيعه لأحد الأغنياء في الجامعة الأمريكية عندما ذكرت له أنك تدرس بها، وستتغير ملامح أبو صلاح، ويقول لك إنه لا يتاجر في الأصنام ولا الموتى، وأن الصحائف هي الكنز الثمين.

أما صلاح فتراه يصحح بعض الألوان لفتاة "كورية " تحدد بألوان متعددة راس كليوباترة ثم يضع بعضاً من اللون الأحمر على شفتيها فتبدو فكأنها غانية. وسيتحدث إليك صلاح كثيراً باللغة الإنجليزية وستحاول أن تتجاهله عندما تراه، وستتشاجر معه عندما يحدثك باسم عن كره صلاح لك ؛ لأنك تحرشت بصديقته عندما كانت تتوسطكما في المترو، وأنك أقحمت أصابعك بين فخذيها بغرض استثارتها، فتدافع عن نفسك وتقول مخبول وغير طبيعي فيوافقك في الرأي، ويقول إنه يضع كبسولة، فلا تفهم. وسيقول لك إنه لن يتخلى عنه فهو ليس هجام، ولا يسرق الأجانب، ولا يخدعهم، فقط يمضي معهم وقتاً ممتعاً، ووالده يكفيه من كل شيء. وأن "صلاح" كثيراً ما يمرر النساء عليه، وأنه جدع بكل معاني الكلمة ويعرف حق الصديق جيداً.



قال أخوك "ماجد": لا تلم "باسم" على الأقل هو عارف بيعمل إيه، ثم قال: انت فاشل في كل شيء وخاصة مع النساء.

ما معنى أن تكون ناجحاً ؟ تسأل نفسك، تعترف: لقد فعلت كل ما في وسعي لكي أنجح، اجتهدت ودرست، وهربت من كل تجربة تضيع وقتي، وتذهب برأسي بعيداً عن الهدف المحدد لي، كنت أري الناس، وأتعاطف معهم، وأعاشرهم ولكن لم يكن الوقت يسمح بأن أعرفهم أكثر وكأنني أجلس بجانبهم في قطار، وعندما نصل إلى نهاية الرحلة يذهب كلٍ في طريقه، وكأنها الأقدار اجتهدت لكي أصنع نفسي، ولكن هل أنا الذي صنعت نفسي ؟ أمي وأبي وإخوتي هم الذين صنعوني بعد الإله، كانوا يعطون ولا ينتظرون المقابل، كانوا يسهرون في عملهم، وأنا جالس في حجرتي أقرأ كتباً تتنفس روح وأفكار الموتى، كانوا يكدون ويكدحون ويمرضون وأنا أستمتع بمحاضراتي، وتجوالي في الندوات والمكتبات، أتعالى عليهم، وعلى مهنهم، وأتهمهم بالجهل والتخلف والاستهتار بكل ما هو قيمة. ماجد أخوك يسألك ألن تكسب من الفن؟ فتقول: الفن للفن.

يطلب منك أن تتحمس أكثر للحياة وللبشر، وأن تعاملهم على أنهم لحم ودم وليسوا أفكاراً وحكايات شغوف بمعرفتها لكي تسجلها فى دفاترك. إخوتك حقيقيون ومحبتهم لك حقيقية. أما أنت ففيك الأنانية وتسميها الفن.

ماذا فعلت لهم ؟ وماذا أعطيتهم ؟ وهل طلبت منهم أن يرتاحوا قليلاً لتتحمل أنت المسئولية، وتدفع القليل من ديونهم عليك. كاتب ومدرس جامعي، يمكنك أن تبيع بالكثير في هذا الزمن ولكنك تهرب وكسول، وتقتات على أرزاقهم، وتقول فنان، أخرج من الشرنقة، تطهر وكن شخصاً حقيقياً، قبل فوات الأوان. اخلع الضمادة من فوق عينيك، وشاهد الحياة بنظرة خبير، كن فعالاً ولا تنسحب من المعركة قبل نهايتها، خذ موقفاً ولا تدع أحداً يتهمك بالسلبية. هل أحببت نادية؟ وهل استولت على مشاعرك هذه الطفلة التى استعجلت الحريق؟

تهرب من زوجتك إليها، تدعى أنها أكثر حيوية وإنسانية من المرأة التى انبهرت بها عندما رأيتها ووجدت نفسك غارقاً في بدائية الشهوة والغريزة حتى اكتفيت، ثم طلبت أن تبنى العالم وتركتها هي على الفراش، في مخدعها الوردى تصلى فيه من أجل حضورك وغسلها بمائك في قدس الأقداس. ماذا حدث وأين ذهب افتتانك بزوجتك؟ وهل يزهد الرجل من امرأة اشتهاها وطلبها وتزوجها؟ أم أن الملل والألفة لهما فضل التفريق؟ تقول إن زوجتك لا تشاركك هوايتك، وأنت الذي أبعدتها عن إبداعك؛ لأنها أصبحت خطراً؛ لأنها تفتش فى

شخصياتك النسائية، وتتشوق لتعرف من هذه المرأة التي تكتبها دائماً في حكاياتك؟

ثم تجيء نادية فتخلق لك عالماً جديداً يظهر بقوة في أفقك ثم يخبو أحياناً..... ..

ثم تسأل نفسك ؟

هل كل امرأة تقابلها تحبها وتسمح لها بأن تحتل مساحة كبيرة من تفكيرك ومخيلتك ، وتنسج أحلاما لحياة أزلية معها ، تكون فيها المحبة والصداقة المظلة التى تظللكما ؟ نعم لقد مررت بنساء كثيرات، ولم تأخذ أبدا المبادرة بأن تكون واحدة منهن شريكتك الدائمة، ولو افترضنا أن العلاقة حقيقية وستدوم دائما ولسبب ما تتشكك فى المرأة وإخلاصها لك وتقول ليس لهن أمان وإنهن يبدلن الرجال كما يبدلن جواربهن ليس فقط بمصاحبتهن للرجال بل مجرد التفكير فيهم أو اشتهائهم وحين صرحت بذلك لامرأة عندما جاءتك الجراءة لأول مرة سألتك ألا يشتهى الرجال النساء حتى ولو بالنظر إليهن ؟ فلماذا تسيء الظن بالنساء وتحرم عليهن ذلك ؟ ثم قالت فتش عن المرأة. وربما تكون تجربتك الأولى بالأنثى هي السبب ، وعندما قلت لها إن علاقاتي

اتسمت بالإيجابية والحميمية، قالت أيمكن أن تحدثني عن والدتك قليلا ؟ وعندما فشلت نظرت لى طويلاً وقالت: الأمهات هن العاشقات السّريات للرجال، ثم سألت هل قرأت "أبناء وأحبة" للكاتب "دى٠إتش لورانس" ؟ وكيف كانت علاقة الأم "مدام موريل " بأبنائها العائق الوحيد لتطورهم نفسياً وجنسياً، وأن ابنها "بول" لم يستطع أن ينجح جسدياً مع امرأة إلا عندما ماتت أمه ٠ قلت: لماذا تزجين دائما بالاشتهاءات فى حديثك ؟ أتريدين أن تدخلى معى فى علاقة ؟ وكانت هذه أول مرة تتحدث فيها بجراءة وبذاءة مع امرأة معروفة بثقافتها وعلمها أثناء احتسائها للبيرة وسط جماعة من المثقفين ٠

اعترف إذن أنك تخاف من الشهوة ، اعترف بأن نموذجك هو التبتل والعفة ، أو ربما أشياء كثيرة لا تستطيع أن تكتشفها فى ذاتك ، عشت دائماً والمسيح نصب عينك، ويوسف هو مثلك الأعلى فى التطهر ولكن غاب عنك أنهما أنبياء، وليسو بشراً تماماً وأنهما نورانيان.

تقول لنفسك تريدها قطة مغمضة العينين وحين تجدها تلوم نفسك وتقول لا أحب المرأة الغبية التى ليس لها خبرة بالحياة ولا بالحوار، وتقول أريد امرأة مستقلة تتحدى الرجولة بداخلى وتجسد

أسطورة إيزيس . تقول النساء قليلة الخبرة سهل إغوائهن وأن الرجال يستغلون سذاجتهن فى تحقيق أغراضهم.



هذيانات وهواجس تملؤك يا "نادر"، وحزن يكبر حتى صار بحجم البحار واليابسة تهرب منها، تحاول أن تلملم ما تكسر وتفتت بداخلك في فشل والرعب يملؤك حتى طغى ولم يترك فراغاً لأي فجوة يتسلل منها الأمان والطمأنينة. العيون زائغة وغير ثابتة ويلى الضحكة وجوم ينم عن أزمة كبرى تخمد كل حيوية بداخلك، فتغنى ربما تتطهر وتصلي ربما تفهم أو تصل إلى الحقيقة الكامنة بداخلك.

صوتك الباطن يقول اخرج خارج نفسك وتأمل الكون من حولك فالتفكر والتدبر هما الأساس لمعرفة الإنسان ذاته، ثم الوصول إلى الذات العليا.

لماذا انشغلت بنفسك ؟ أنت لم تخلق ذاتك فلماذا الاستغراق إلى حد الوصول إلى الطبيب النفسي ؟!

طبيب نفسي مرة ثانية، وأدوية مهدئة، كادت تقتلك ذات مرة عندما أخذت كمية أكبر من الجرعة المحددة بخطأ منك عندما لم

تفرق بين الخمسة مليجرامات من الخمسة والعشرين فكاد قلبك يتوقف، وقل النبض بشكل غير طبيعي، وأخذت تحملق في السماء طويلاً، وتقلبت في الفراش ورقدت طوال الليل جثة هامدة غير قادرة على الحراك، ولم ينقذك سوى أختك التي لم تشعر بأنفاسك، وهي تطلب بعض النقود وأيقظت المنزل كله بصرخة واحدة، وأدخلتك الحمام لتفرغ ما في جوفك معتقدة أنك قد انتحرت، وكانت معدتك خاوية، ليالي طويلة من الوهم، وأيام عديدة من محاولة التأقلم مع الذات. جلسات علاج طويلة، وطبيب يقول الاعتراف ليس جريمة بل هو الطريق الصحيح للصحة النفسية، أصدقاء يتساقطون منك لتشوشك وعدم قدرتك على فهمهم ومساعدتهم، تتحدث جيداً عن أشياء يعلمونها، وربما لا يعلمونها، ثم تهرب عند أول اختبار حقيقي لمعنى الصداقة.

تقول إن الظلمة تزحف بداخلي، وأن النور قد انطفأ منذ زمن بعيد، وأن الأفول في روحك لم يكن باختيارك، وأنك تحاول أن تفرح ولكن لا تستطيع. فقد أغلقت حواسك حتى إنك تفكر كثيراً في الانتحار هذه الأيام، وأن روحك قد هانت، وجسدك تنتهكه شر الانتهاك؛ أملاً في أن يفنى ويهلك حتى ولو ألقيت بجسدك تحت قطار مسرع أو امرأة مهمتها غواية الرجال.

تقول إنني أحاول أن أرى حقيقتي حتى أحتفظ ولو بالقليل من الأصدقاء؛ حتى أسعدهم لأنهم يحبون ذلك، أما أنا في العزلة والغربة فهما العدل الذي أستحقه.

ساعات ثم تدفقت الدموع بغزارة حتى جرى فانسكبت وأغرقت المكان والحاضرين، دقائق من السعادة، وساعات طويلة من الوحدة، تريد أن تعرف الحقيقة، وتسأل عن ماهيتك وماهية الوجود، وتعود بدون إجابات شافية، داخلك الإيمان العميق، وعلى مستوى الطقوس غير قادر على الالتزام، تريد أن تفهم جسدك وروحك، تريد أن تعرف معنى أن تكون إنساناً، ومعنى أن تكون رجلاً مقبولاً من الآخرين، رجل يستطيع أن يدخل عالم امرأة، ويحتويها، ويجعلها ممتنة لوجودها معه في رحلة ربما تدوم لنهاية العمر.

الطبيب النفسي يقول: لا تحتاج إلى أدوية، المشكلة بداخلك، وفي وعيك، أنت طبيعي مائة بالمائة حاول أن تعيش بدون أن تتعمق، الجنون هو الولوج فيما وراء الأشياء، كونك تريد أن تكون فيلسوفاً شيئا، وأن تكون إنساناً عادياً فهذا شيء آخر. والتفكير في الوجود هو معضلة الإنسان الكبرى. ليت الأشياء تنجلي وتتضح، الناس يشعرون بأنك

تخفي انكسارات بداخلك لم تكن أنت مسئولاً عنها، ولم تكن أنت الذي اخترت أن ترسم صورتك بهذا الحجم وهذه البشاعة كما تتراءى لك أحياناً.

منذ أن تركتها وأنت لم تعد كما كنت، وكأنها أخذتك معها إلى عالمها.



وسيشعر نادر بالخوف والريبة من كل شيء، وسيربي لحيته لأيام عديدة، ويجلس في حلقات الذكر في سيدنا الحسين، ويتجول في الجمالية، وسيقرأ ثلاثية نجيب محفوظ، ثم يقرأ التجليات للغيطاني، " والحب في المنفى " لبهاء طاهر، ثم يعود ليقرأ كافكا وديستوفسكي، ويهمل جيمس جويس تماماً وسيقول لطلبته نريد أن نفهم العالم، ولا نلغزه أكثر كما فعل جويس، وسيترك زوجته لأيام عديدة وحيدة مع والدته برغم نمو الجنين بداخلها، ثم يطلب منها إجهاضه ؛ لأنه لا يريد أن يستمر معها أكثر من ذلك، ويدعي أن فعل الحب قد انتهى في الأيام الأولى من الزواج، وأن فكرة إنجاب أطفال في هذا العالم هي فكرة هزلية لا يريد أن يشارك فيها وستشعرك شفتاها بكلمة "مجنون" ولا تنطقها؛

لأنها ربما تحبه، أو ربما تعرف أنه محبط، وسيذهب للطبيب النفسي مرة ثانية فيعطيه حبوب "زنكس"، لكي تخفف من حالته هذه؛ لأنه يجب أن يستمر، وأن يدرس وأن ينام مع زوجته، وأن يظل يتابع نشرات الأخبار وما ستفعله الولايات المتحدة في أفغانستان ثم العراق في حربها على الإرهاب.



وسيكتئب نادر أكثر وسيذهب كثيراً كالتائه إلى باسم، يشرب معه البيرة بعدما يغلق بار "ستلا" أبوابه، وبعدما ينبذه أصدقاؤه من شعراء قصيدة النثر، سيقول له فتحي عبد الله وحسن خضر افعل مثلنا نكتب شعراً لكي نتمرد على الوضع الراهن، نكتب قصيدة نثرية غير معترف بها من حيث النوع، تماماً كما يحدث معنا في مصر والوطن العربي الكبير، وستنزعج جداً عندما تأخذ الولايات المتحدة قرارها بالحرب على العراق، وستذهب لتتظاهر مع أصدقائك من الكتاب والطلبة وسيضرب صديقك الروائي الذي ذكرت روايته مسبقاً بالعصا من السلطات، وصديقتك "شيرين" التي تسجن ساعات قليلة؛ لتخرج ليقول الناس عنها بعد ذلك إنها أصبحت نجمة، ولكن تراها مرات عديدة بعد ذلك محطمة خاوية، ولا تتحدث بشجاعة ولا بجراءة كما

تعودت، وستفقد الإيمان بمفهوم الديمقراطية وعدالة الغرب، والأفكار اليوتوبية التي عشت تؤمن بها، وتدرسها للطلبة، وسترى ملايين من البشر تخرج في مظاهرات لوقف العدوان على العراق من كل مكان، ستراهم في اليورنيوز وBBC والجزيرة والنيل للأخبار، وستغرق الجماهير وتموت حركة التمرد بإطلاق خراطيم المياه الحمضية، والقنابل المسيلة للدموع، وسترى بعينك سقوط بغداد وترى التتار يدوسون بأقدامهم على اللوحات والكتب المقدسة عندما يعبرون نهر الفرات.



لن تقابل "باسم" إلا وتجده يتحدث عن أزمته المالية، ورغبته في جمع المال، وستراه أحياناً حليق الرأس وكأنه نازي جديد، أو تاركاً شعره بالشهور وكأنه واحد من الهيبز، وسيتحدث عن والدته كثيراً وخاصة بعدما تزوج أبوه ويقول إنه يفتقدها كثيراً فهي ماتت تعيسة نعم كانت مؤمنة ولكنها عانت من مرضها أشد المعاناة وأنه لم يستطع أن يفعل لها شيئاً، وأن النذل أباه لا يهمه في الحياة إلا وجبة يشبع بها معدته، وامرأة يفرغ فيها حاجاته، وسيقول لك إنه جدع مع والده، ويقرضه نقوداً

عندما تكون معه دفشة حلوة ويأخذ منها دولارين، وستمل من الحديث المكرر، وتقول له لماذا لا تنفجر في أبيك أو حتى تقتله وتريح نفسك ؟ وتتضايق كثيراً من خنوثته وهوانه على نفسه وهوان الناس عليه. وستقول لك أمك أكرمه لأجل أمه كانت صديقتي وصاحبتي في الحج والعمرة وعمرها ما أخطأت في حق أحد، هي فقط كانت تريد أن تحمي نفسها وحياتها من المشكلات وهذا العالم المعقد، ولها حق فيما فعلته ثم تقرأ الفاتحة، وتقول ماذا أخذت أنا بانفتاحي على العالم، لم أدخر شيئا لنفسي، كله لك ولإخوتك، وستقول لها إن السعادة في العطاء والرضا وستتعاطف معها كثيراً ولا تغضبها وستحاول أن تكون قريباً منها وخاصة بعدما تركت زوجتك المنزل وسيتهمك باسم بأنك تعاني عقدة كالوجيلا، وستقول له إنه يعاني عقدة إلكترا وتضحك كثيراً.

وفي أوقات كثيرة ستحرج أن تقف وتسلم عليه وأنت تراه يومياً في وسط المدينة مع أشخاص لا تعرفهم وتكرههم تماماً لأنهم ممسوخون، وستراه يترنح من المخدرات وستخجل أن تلقي عليه التحية، وأنت تمشي وحدك أو مع أصدقائك، وسيفعل هو ذلك أيضاً ولن يقترب إلا إذا أنت فعلت وربما تسلم عليه بحرارة وتقبله ؛ لأنه قريب لك قرابة الدم أو لأنه

أكثر من صديق فقد طريقه الذي أنت فاقده تماماً وتدعي الحكمة الكاذبة والمعرفة، ليس باعترافك ولكن بالشهادة المعلقة على الجدران والصحائف التي تحتفظ بها كسجل على الإنجاز، وستقول لنفسك أعتبره "الصديق الأزمة" مثل "الزوجة الأزمة" التي ارتبطت بها، دائما أنت رجل الأزمات التي تخلقها لذاتك، بعد اعترافك بحقيقتك أو مواجهة الناس، تماماً عندما أحببت امرأة وتظل تحبها وتقابلها دائماً ولا تعترف لها وبعدم اعترافك تظل هي المرأة المستحيلة وأنت الرجل المشكلة بالنسبة لها.



وتتهم أنت "باسم" بالكذب، وتقول له كيف سولت لك نفسك أن تفعل ذلك بنادية الفتاة الفقيرة والضعيفة، وتحتقره أكثر عندما يقول لك إنها كانت عذراء في أول مضاجعة له معها، وأنه فرح بهذا الشعور فتقول له ألم يراودك إحساس الذنب ؟ ولم تخش أن يحدث ذلك لأختك ؟ فيقول هي أحبت ذلك، وأختي زوجة ضابط شرطة وتفعل ما يحلو لها، يجب أن نتحرر من الجسد لكي يتحرر العقل، وتفكر فيها كثيراً. وتقول لنفسك هل أنت مختلف عن كل هؤلاء الرجال لدرجة

أن أول قبلة لك كانت مع زوجتك، وأن اكتشافك للأنثى لم يتح لك إلا من علاقة شرعية، لدرجة أشعرتك أنك لا تفهم ما هي المرأة ؟ وما هو الجنس ؟ حتى بت مكتئباً ووحيداً. وراودتك رغبات سن المراهقة أن تعاكس الفتيات، وتلمح بإشارات جنسية لدرجة الابتذال، حتى نبذتك المتحفظات منهن، بعض الأصدقاء يقول إنك أصابك سعار الشهوة المتأخرة، ومع ذلك تظل تسأل عن نادية، وستشفق عليها من مرارة التجربة، ومن حادثة الإجهاض، وستقول لنفسك كيف ستتعامل مع الحياة بروح قاتلة لأول جنين لها من أب غير باسم؟ ومن هو الطبيب الحنون الذي تعاطف معها ووضع الحلال والحرام والسفاح جانباً وهو يمسك بالجفت ويكحت الجنين خارج الرحم، ومن هي الممرضة التي تخلصت من هذا الجنين الذي ربما كان يحمل صفات باسم ونادية معاً بدون أن تطلب بغض الجنيهات لتداري بها فضيحة هذه الطفلة التي ترقد منفرجة السيقان أمام الطبيب الكبير السن؟



ستری "باسم" وأنت تقف أمام سينما مترو تقرأ أفيشات فيلم جديد "عصابات نيويورك" فتعبر الطريق فتراه يبتاع آيس كريم من محل

قويدر، فتسأله آيس كريم في الشتاء ؟! فيقول ليس لي بل للدهشة الفرنسية ويقول يجب أن ندلع النساء حتى يمتعونا، ويدعوك لشقته لتناول الشاي والطعام، فتنزلقا إلى البناية "٤٢" بطلعت حرب وتقرأ على مدخلها "ملك لشركة مصر للتأمين". فتصعدان السلالم المتعرجة. فتدخل الشقة فتشعر بالوحدة، الأسقف عالية، ولا يوجد أثاث في أرجاء الشقة وتحس رائحة الغربة في أركانها المظلمة، ثم يفتح باب الحجرة، فترى الضوء بعد الظلام، وتراها فترحب بك بهدوء ويبدأ هو بتعريفها بك ويذكر قيمتك الثقافية بكثير من المبالغة تخجل منها ويتحدث عن زيارتك لباريس ويفتخر أنه سيكون بطل قصة من قصصك يوماً ما. فتضحك، فتقول لك "لوسين" إنها تدرس اللغة العربية والآثار المصرية، وأن "باسم" أفادها كثيراً وأنه جعلها تقرأ رواية "الخباء" لميرال الطحاوي، فساعدها ذلك على فهم أحوال المرأة العربية الآن، فتتعجب من قراءتها المغلوطة للرواية، وأنه دائماً ما يصطحبها في رحلات لزيارة جامع عمرو الذي تأخذه كنموذج لتطور العمارة الإسلامية والمصرية، وكيف أنه سهل لها كثيراً من الأمور البيروقراطية، ثم تميل عليه بدلال وتقبله. لوسين بيضاء البشرة، ذات جسم ممتلئ قليلاً، ثم عرفت بعد ذلك أنها حامل، وأنها تريد أن تحتفظ بالطفل وتضع حول رقبتها

شالاً عربياً يشبه الشال الذي كان يضعه "ياسر عرفات" فوق كتفيه كدليل على الهوية الفلسطينية. قدمت الشاي بالنعناع، وجلس باسم، وأمسك بالجيتار، ثم أخذ يعزف "انت عمري"، ثم توقف عندما أشارت إليه، ثم قامت هي وأدارت أغنية "بعيد عنك حياتي عذاب"، ثم قالت إنها دائماً ما تذهب إلى مقهى كوكب الشرق بعماد الدين وتطلب من الجرسون أن يدير لها هذه الأغنية ؛ لأنها تعشقها كثيراً وخاصة عنما تتأوه قائلة - - [illegible] - الشوق - آه - من الشوق وعمايله...، ففيها حالة من الشجن والصوفية تذكرها بالحب المستحيل، وأصوات الأذان، وأجراس الكنائس العتيقة التى زرتها فى الشرق ثم قالت إنها مفتونة بمناجاة العشق بين آلة القانون والكمان ثم أضافت: بليغ حمدي هو نتاج الثقافة العربية، ولكن فرنسا لها دور كبير في تطوير عبقريته الموسيقية، ثم بدأت أنت تمدح فرنسا وتقول إن فرنسا هي البلد القادر على احتضان الثقافة العربية ليس فقط لوجود جاليات عربية كبيرة بها ولكن لقرب الحس الفرنسي من الحس العربي وهو حبهم للحياة والفن، فترد لوسين قائلة إن رؤيتك حالمة للمجتمع الفرنسي، فهو شعب لا يعجبه أي شيء ودائماً ملول وناقد حتى لنفسه، ثم أضافت لقد تغير الشعب الفرنسي كثيراً عما كتبه الطهطاوى وطه حسين عن فرنسا .ثم

تستأذن هي لتأخذ حماماً. تدخل أنت الشرفة وتنظر لشارع طلعت حرب من أعلى فيبدو عالماً ساحراً، وتتمنى أن يأخذ لك أحد صورة وفي خلفيتها هذا المنظر الساحر مثلما يفعل الممثلون العالميون وخاصة الصورة المنطبعة في عقلك لمارلين مونرو وجيمس دين وهما يطلان بتأمل وشجن على مدينة نيويورك في أحد النُهُر التي يملؤها الضباب من الشرفة ترى السيارات صغيرة الحجم، والمتاجر المنتشرة على الجانبين، والبشر الذين يمشون باتكسار، ويبدون كأنهم أقزام فتتذكر رحلات جليفر، المنازل والبنايات على الطراز الفرنسي تماماً كما حلم الخديوي إسماعيل. وتحلم يوماً ما بأن تسكن وسط المدينة مثل كل الفنانين في العالم، حيث المتاحف، والسينما، والأوبرا والمكتبات والحياة، ولكن دائماً ما تعود إلى المعادي وكأن القدر يجبرك أن تعيش هناك مع بشر لا تستمتع معهم كثيراً ولا تفهم ماذا يريدون من الحياة غير سيارة فاخرة وشقة أنيقة. حتى أصدقاؤك مختلفون عنك فهم مبهورون بالسادات ومشروعه القومي، وتناسوا تماماً عبد الناصر، واعتبروه الأحمق الكبير الذي ورط المنطقة في حروب لا قبل لنا بها، وأنه هو الذي جلب الاستعمار الحديث أمريكا وإسرائيل إلى المنطقة بعد تأميمه القناة التي كانت ستستردها مصر بعد أعوام قليلة من عام ١٩٥٦ م.

ستعرف بعد ذلك أن لوسين قد تركت القاهرة ليس فقط لأنها أنهت عامها الدراسي في جامعة القاهرة قسم الآثار، ولكن أيضا لتذهب إلى باريس لتضع حملها، حيث تخشى من الولادة في القاهرة، وتنقطع أخبارها وتقابله بعد فترة فتذهب معه إلى شقته، فيأخذك إلى الشرفة ويخرج من جيبه بعض الصور، ويقول هذه صور ابني " شهاب" من الفرنسية " لوسين "، فتحتار أتصدقه أم لا؟ وتحملق في الصور فترى التشابه الكبير بين الابن والأب، ثم تسأله الن تأتي " لوسين " إلى القاهرة ؟ فينظر في الصحراء الواسعة ويتحسر ويقول "العاهرة" تقول إن أردت أن تراه يجب أن تأتي إلى فرنسا، وهي تعلم علم اليقين أن هذا مستحيل، كما تعرف ليس لدى جواز سفر، تدعي أن ليس لديها نقود "، قلت ربما تخشى أن تأتي فتأخذ منها الطفل " فقال " حقيقي! " يمكن، ثم يصمت قليلاً، ويقول أريد من يعتني بي، هي واهمة، لست نذلاً لأحرم طفلاً من أمه، هو يحتاج لها أكثر مني. ثم سألت: وما دينه؟ قال: هذا سؤال! المسيحية طبعاً، هي كاثوليكية متشددة برغم أنها آمنت بالدين الإسلامي، وكانت تقرأ كثيراً في القرآن، ليس فقط من متطلبات الدراسة ولكنها كانت تحب أن تعرف هذا الكتاب الذي حول أهل قرية تعيش في مكة ثم المدينة إلى أمة تحكم الشعوب، وتخلق حضارات تحدث

بها العالم وعلمت من خلالها الكثير من الأمم. ثم أضاف إن أباها قس في إحدى الكنائس الفرنسية وعاش فترة في لبنان، ومصر أيضاً، وعندما أخبرته لوسين بعلاقاتي المتعددة قال لها إن فى الدين الإسلامى رخصة للمسلم لأن يستمتع بالنساء كيفما يشاء تحت ما يسمى بملك اليمين، وقال لها وأنت الآن ملك يمينه فاستمتعى به. برغم خطيئتها معى إلا أنها تحب المسيح وترى أنه النموذج الأمثل للإيمان به، وسيساعدها أن تتخلص منى، ثم أضاف باسم: دين الطفل ليس هو المهم، المهم أن يعرف من أبوه، ويشب مؤمناً بالله الواحد، وبأن لهذا العالم خالقاً، وأن الطبيعة لم تخلق نفسها. ثم قال بحسرة: ربما سيتشأ مؤمناً بالوجودية التي نادى بها سارتر وكامو، ثم أضاف: إن الصراع بين العدم والوجود هما الشيئان اللذان يهددان فرنسا.



ستراه كثيرا يجلس بالساعات في مقهى الحرية بباب اللوق يشاهد لاعبي الشطرنج، ويندمج معهم في النكات، ثم يبدأ في اللعب معهم لساعات متأخرة من الليل حتى تئن فقرات ظهره، وسيقول لك إنه لا أحد سيهزمه، ولا حتى في هذا المقهى، ولا العالم كله، وسيكون أسرع

لاعب في تحريك القطع والضغط على البليدز تايمر، وستقول له لماذا لا يحترف هذه اللعبة مادام بارعاً فيها ؟ المهم أن تنجح في شيء، وسيقول لك مشكلتك أنك تعتقد أن كل شيء تفعله يجب أن يدر ربحاً. وسيقول لك أنت مثلاً تكتب قصصاً وروايات ولا تربح منها شيئاً سوى بعض جمل الثناء، ولا يقرأ كتبك إلا القليل، وستمكث لأكثر من ثلاثين عاماً حتى يعترف بك وربما تموت، ولا أحد يعطيك جائزة تكلل مجهوداتك. وستذهب أنت يا نادر أيضا لمقهى الحرية تجلس بين الناس تحاول أن تفهم لماذا يجلسون هكذا، بدأت بحب الاستطلاع ثم أدمنت الجلوس بينهم غير قادر على الاندماج وفاشل تماماً في تعلم لعبة الشطرنج برغم محاولة حازم صديقك تعليمها لك. تشاهد الفتى ميلاد نادل المقهى يضاحك الأجانب ويهمس بمقولات جنسية ويتحسس بحذر ظهور النساء ويهدد الرجال بالجلوس على أفخاذهن فتتعجب من جراءته.

تجلس في استحياء في الركن الذي لا يقدم المشروبات الكحولية، وتهرب من الطاولة التي توجد عليها بالصدفة زجاجة بيرة ستلا، خشية أن يراك أحد أصدقائك أو معارفك فيتهمك بالانحلال أو هكذا يخيل إليك!

❖ ❖ ❖

سيقول لك باسم يجب أن تكتشف مصر، وسيدعوك لرحلة سفاري في الواحات، وسيقول لك إن الصحاري هي التي ستساعدك على الكتابة، وخلق جو سحري، في روايتك وأن الغرباء يدركون جمال مصر بكل معانيها، وأن الجبال البيضاء والرمال الدافئة ستعيد لك صفاء ذهنك، وأن الطبيعة خير معلم.

سيقول يجب أن تخرج من المعادى فهى منطقة غير ملهمة بالمرة، ولا يسكنها إلا جماعة من البرجوازيين الذين يبحثون عن الحياة الهادئة دون رغبتهم فى المخاطرة أو المعرفة، وسيأخذك في سيارته الصغيرة ويطلعك على وادي دجلة، وسيريك بعض عظام لحوت تحفر منذ ملايين السنين ويرشدك عن طرق جديدة ومختصرة تصل بك من المعادي لمدينة نصر في دقائق معدودة برغم أنها تخترق الصحاري والطرق المتعرجة والمقابر.

وسينصحك بأن على الكاتب أن يتحرر من الحياة الرتيبة، ويعيش حتى يستطيع أن يطلق خياله، وأن تتعرف على الغرباء ؛ لأنهم قادرون على مساعدتك على فعل ذلك ؛ لأنهم يدهشونك بسذاجة حكايتهم

وغرابتهم ومحبتهم الشديدة للحياة، وأن الدنيا هي الجنة التي خلقوا من أجلها ويعملون جاهدين على خلقها ؛ لذلك ترى حبهم للحياة، ورغبتهم الشديدة في الاستمتاع بكل لحظة وأن اليوم هو التاريخ، وأن المستقبل وديعة لفرحة اللحظة المعاشة.



وهو يمشي في شوارع المدينة المزدحمة نظر نادر إلى الحوانيت المتعددة على الشمال كان هناك محل BTM يعرض معاطف شتوية، حملق فيها ثم دخل المتجر وقال: سأشتري معطفاً هذا الشتاء، وتنبأ أنه سيكون قارص البرودة، وقال: سأشتري قفازاً لأحمي أصابعي من الصقيع، ربما سأضع أيضاً قبعة فوق رأسي، وقال: لن أهتم بما يقوله الناس عني بأنني أحاول تقليد الرجل الغربي، ثم همس لنفسه وهو يقيس المعطف: سأعيش بمفردي، وسأستأجر شقة، ويجب أن تطل على شارع رئيس وفضاء واسع، وسأشتري أريكة جديدة مريحة أمريكية الطراز، ومكتباً ومقعداً، واسطوانات لبيتهوفن، وألبوم "أحمر شفايف" لمحمد منير، وسأحاول ألا أشعر بالذنب تجاه ما اتخذته من قرار بخصوص تطليق

زوجتي، وسأحاول أن أبدأ من جديد، فما أجمل البدايات في كل شيء، ربما أحقق لي السعادة. ربما!

❖ ❖ ❖

سترى "باسم" يقف أمام مبنى الحزب الناصري يهتف مع الكثير من المواطنين يطالبون بانتخابات نزيهة، يختلط هتافاتهم بصوت نانسي عجرم وهي تغني "أخصمك آه... أسيبك لا" وتسأل نفسك هل ستعتزل نانسي الغناء عندما تخرج أمريكا من العراق أم لا ؟ وتضحك أنت عندما تسمع الشباب الجديد الذي يضعون "جِل" الشعر على رؤوسهم بكميات كبيرة ويرتدون ملابس غريبة تشير أن العولمة قد نجحت في مصر، يضحكون على المتظاهرين. فتأتي إليه وتقترب منه وتدعوه أن يبتعد عن هذا المكان، فسيارات الشرطة والأمن المركزي تحاصر المكان، ومن الممكن أن يشتعل العنف بين المواطنين والشرطة.

فتتركه يهتف مع الجماهير وترحل، ثم لا تسمع شيئاً سوى الطلقات النارية ولا ترى شيئاً غير سحب الدخان.

المؤلـف

ـ حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب الأيرلندي المعاصر المكتوب باللغة الإنجليزية.

ـ حاصل على درجة الماجستير في الشعر الإنجليزي المعاصر.

ـ يعمل مدرساً للأدب الإنجليزي بجامعة عين شمس.

ـ صدرت له مجموعة قصص قصيرة بعنوان "البيانو الأسود" عام ١٩٩٦ من دار الثقافة الجديدة بالقاهرة.

ـ صدرت رواية "سانت تيريزا" دار شرقيات طبعة أولى ٢٠٠١.
، طبعة خاصة عام ٢٠٠٨.

ـ صدرت رواية "جبل الزينة" طبعة أولى عام ٢٠٠٥ من دار ميريت للنشر ، طبعة ثانية من مؤسسة "الدار للنشر" ٢٠٠٧ ، طبعة خاصة عام ٢٠٠٨.

ـ صدرت رواية "النوم مع الغرباء" طبعة أولى عام ٢٠٠٥ من دار ميريت، طبعة خاصة عام ٢٠٠٨.





جلست بهدوء ثم انهمرت دموعها، وعلا نشيجها فذهب إليها "باسم" وأخذها بين ذراعيهن ونامت براحة على كتفيه وبعد برهة اعتدلت فى جلستها، ناولتها منديل "كلينكس" فشكرتني.. قالت: وغد يعاملني بقسوة ويتهمنى فى شرفى، يبتذنى ويأخذ نقودى، فاشل ووضيع. ثم أزاحت تنورتها لتكشف عن ساقيها ، وقالت: يشك أنني أضاجع رجلاً آخر بسبب هذه التجمعات الدموية والكدمات الزرقاء، وأحلف بالمسيح أنها أصابع الملائكة التى تهدهدنى فى أحلامي المزعجة طوال الليالي التي عشتها معه".

كانت أغنية "بوب مارلى: "No Women ، No Cry" "لا نساء لا دموع"، تملأ فراغ الغرفة وعندما استمعت إلى المقطع الأخير ارتفع صوت بكائها أكثر، فحاولت تهدئتها،

- ولماذا لا تتركينه؟ ساءلتها وأنا أشفق عليها من هذه الكدمات وأصابع الملائكة.

